قراءة في تطور مناهج البحث الأنثروبولوجية
دراسة مقارنة

د . علي زيدان خلف
كلية الأداب – الجامعة المستنصرية

تمهيد

تتناول هذه الدراسة إشكالية المنهج في الدراسات الأنثروبولوجية ،وهي إشكالية لم تلق العناية الواجبة من قبل الباحثين المتخصصين سواء في علم المنهج methodology وهو ذلك الفرع من فروع العلم المعنى بطرائق البحث التي ينتهجها الباحثون كل في فرع علمه أو مجال تخصصه الدقيق ، أو في علم الانسان أو الأنثروبولوجيا ، وهو علم نشأ مع نشأة علم الاجتماع (في القرن الثامن عشر) وتطور معه ثم لم يلبث أن استقل بذاته وتشعبت مدارسه وتعددت اتجاهاته . وقد اختلفت مناهج البحث والدراسة في هذا العلم باختلاف أهداف الدارسين وانتماءاتهم الفكرية والمؤثرات التي حددت مسارات أبحاثهم ، الميداني منها والنظري على سواء .

ويشير مصطلح الميثودولوجيا أو علم المنهج الى الدراسة المنتظمة المنطقية للمبادئ التي يسترشد بها البحث العلمي . ومن هنا اصبح هذا المصطلح يشير الى كل ما يتعلق بإجراءات البحث وتقنياته (١) . وقد ارتبط علم المنهج تقليديا بالفلسفة كأحد فروعها وبصفة خاصة كفرع من المنطق ولكن نظراً لإخفاق الميثودولوجيا الفلسفية في الإجابة على كثير من التساؤلات ذات الأهمية العلمية عند دارسي العلوم الاجتماعية (٢) فقد راح هؤلاء الدارسون يصيغون علم منهج خاصاً بهم .

ويتمثل جوهر مناهج البحث في إيجاد إجابة للسؤال الآتي :

كيف يمكنني أن أجد المعلومات الصحيحة والمفيدة في مجال معين من مجالات الظواهر الكونية ويتضمن هذا السؤال الأساسي مسألتين بينهما صلة وثيقة هما :

١_ كيف أستطيع أن أقوم شخصياً ببحث مجال معين من الظواهر للحصول على معلومات صحيحة ومفيدة ؟

٢_ كيف أستطيع أن أتأكد مما يعنيه باحث اخر عندما يؤكد افتراضات معينة ؟ وكيف استطيع أن أقرر ما إذا كان يمكنني أن أصدقه ؟

تتعلق المسألة الأولى بالتقنيات والظروف الضرورية لاستكشاف عالم الظواهر الذي نعيش فيه . فالبحث في الأجرام السماوية أو الكائنات العضوية الدقيقة أو الخصائص التشريحية للحيوانات أو الدوائر الكهربية ، يتطلب أدوات خاصة .

أما عند دراسة السلوك الإنساني فإن هذه الأدوات تختلف

والواقع أننا نحصل على معظم المعلومات الأولية في العلوم الاجتماعية من مصادر ثلاثة هي :

١_ ملاحظة السلوك البشري ملاحظة مباشرة .

٢_ الاستماع الى مضمون الكلام الإنساني وتسجيله .

٣_ دراسة نتائج السلوك البشري خاصة تلك التي نجدها في الأرشيف والسجلات والمكتبات .

فالعلوم الاجتماعية تختلف عن العلوم الأخرى في أن جمع المعلومات الأولية يمكن أن يتم في معظم الحالات دون استخدام أدوات ملاحظة على قدر كبير من التخصص . وكما أن الشخص غير المدرب لن يتعلم كثيرا من استخدامه للميكروسكوب أو التيلسكوب فإن الملاحظات الأنثوجرافية لن يكون لها أي معنى ما لم يملك الملاحظ إطار مفهومياً عاما لتصنيف وتنظيم العناصر السلوكية . وهكذا فبالإضافة الى الأدوات والأجهزة الأساسية للملاحظة والقياس ، لا بد أن تتوفر للباحث العلمي مجموعة من القواعد الاجرائية (تشمل المفهومات والتعريفات) التي يستطيع بمقتضاها تحويل الأدلة الحسية الى تعميمات على الظواهر التي يقوم بدراستها (٣).

المنهج بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية :

كثيرا ما يقال أن العلوم الاجتماعية ، وبصفة خاصة الأنثروبولوجيا ما زالت في مرحلة جمع المعلومات وبينما ينشغل العلماء الاجتماعيون في وصف وتصنيف موضوعات دراستهم فإنهم لا يقومون بصياغة أي قوانين عن هذه الموضوعات بل أن البعض يزعم أن صياغة القوانين العلمية ليست من شأن علماء الاجتماع وبصفة خاصة علماء الانثروبولوجيا إما بسبب بعض الآراء القاطعة الخاصة بأهداف العلوم الاجتماعية أو بسبب اعتقاد خاطئ بأن العلوم الاجتماعية ليست علوما كالعلوم الطبيعية (الفيزيقية) مثلاً . ومع ذلك فلو أننا أخذنا الأنثروبولوجيا كمثال تبين لنا أنه ليس من الصحيح أن علماء الأنثروبولوجيا لم يصلوا بعد الى مرحلة صياغة القوانين الخاصة بالسلوك البشري . ففي علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا توجد الآف التعميمات التي تشبه القوانين التي تصف بشكل مؤكد السمات المنتظمة في السلوك البشري ولكن معظم هذه التعميمات تتعرض لتشويه ظالم (حتى على يد علماء العلوم الاجتماعية أنفسهم) بإعتبارها بديهيات لا تستحق أن يطلق عليها قوانين..

ولقد كانت صعوبة صياغة وتأكيد وتطبيق القوانين في العلوم الاجتماعية هي التي جعلت بعض الناس يصلون الى الاستنتاج المخطئ بأن العلوم الاجتماعية تختلف عن العلوم الطبيعية .

فقد قيل مثلاً انه لا يمكن أن توجد قوانين نستطيع بها أن نفسر السلوك البشري أو نتنبأ به لأن التتابع التاريخي لأعمال البشر يتكون من أحداث منفردة تحدث نتيجة لأفعال خاصة يقوم بها أفراد من البشر _ وربما كان من الصحيح أن كل أنسان وكل فعل بشري هو شئ فريد ولكن ذلك يصدق أيضاً على كل أوقية مفردة من الكبريت وعلى كل تفاعل كيميائي ، ولكن نظرا لأن سلوك أوقية معينة من الكبريت يشبه كثيرا سلوك أي أوقية كبريت أخرى ، بينما يختلف سلوك كل إنسان في اغلب الأحوال عن سلوك باقي أفراد البشر الآخرين (كما أن سلوك البشر هو أكثر تنوعا وتعقيدا من السلوك أوقيات الكبريت) ، فإن ذلك يجعل بعض الناس يعتقدون أن علم الفيزياء هو أكثر "علمية " من علم الأنثروبولوجيا والواقع أن القوانين في الأنثروبولوجيا تكون أكثر صعوبة من حيث صياغتها وتأكيدها وتطبيقها لأن موضوعات الدراسة فيها أكثر ندرة وتعقيدا كما أنه من الصعب فهم سلوك هذه الموضوعات (٤) .

ومن هنا فإن إدراج الانثروبولوجيا ضمن العلوم الاجتماعية يثير التساؤلات حول ما إذا كانت الأنثروبولوجيا – والعلوم الاجتماعية– يحق لها أن ترتدي رداء العلم المقدس (٥) . فهناك ظروف تحد من معرفة الانسان بالقوانين الانثروبولوجية تتمثل في :–

١ : الظرف البشري وندرة الموضوعات والأحداث التي يدرسها علم الأنثروبولوجيا

٢ : امتداد هذه الموضوعات والأحداث لمسافات كبيرة في المكان والزمان بحيث لا يمكن لإنسان أن يطمح الى ملاحظتها الملاحظة الكافية (فلم يكن هناك إنسان يستطيع ملاحظة المراحل المبكرة لتطور " الإنسان العاقل " كما أنه لايوجد إنسان يعيش لفترة طويلة تمكنه من ملاحظة تطور سمة ثقافية معينة لعدة مئات من السنين في مجتمع معين .

٣ : طبيعة وحجم الموضوعات والأحداث الأنثروبولوجية التي تستبعد إمكانية تكرار هذه المواقف في تجربة كتلك التي نجريها بسهولة في تفاعل الكبريت الذي سبقت الإشارة إليه .

٤ : من المحتمل جدا أن يكون " الانسان العاقل " في عالمنا قد تطور مرة واحدة فقط بحيث يكون من المستحيل على أي إنسان أن يلاحظ أمثلة متعددة لهذا النوع من الأحداث .

لكل هذه الأسباب فإنه من الأسهل أن يصوغ الإنسان قوانين العلوم الفيزيقية أو الطبيعية خلافاً لما هو عليه الحال في العلوم الاجتماعية . ومع ذلك فإن آفاق صورة استخلاص القوانين العلمية في الأنثروبولوجيا ربما كانت مرنه الى حد ما ، فمن أهم مظاهر المعرفة البشرية أنها

معرفة تراكمية أي أنها تنتقل بالوسائل الثقافية من جيل الى جيل فما يعجز إنسان ما عن فهمة أو ملاحظته يمكن لسلسلة متعاقبة من البشر أن يقوموا ببحثه تدريجيا حتى يستطيع إنسان ما في النهاية أن يستوعب المعلومات المتراكمة ويجد نفسه قادراً على صياغة القوانين (٦) .

ويقتضي حسم مسألة "علمية" المناهج وطرق البحث التي استخدمها علماء الأنثروبولوجيا بصفة خاصة في التوصل الى ما سبقت الأشارة إليه من " التعميمات التي تشبه القوانين التي تصف بشكل مؤكد السمات المنتظمة في السلوك البشري " أن نعرض بشئ من التفصيل لمناهج البحث المستخدمة في العلوم الطبيعية ومناهج البحث المستخدمة في العلوم الاجتماعية حتى يتبين لنا مدى إمكانية الاعتماد على "التعميمات" التي يتوصل إليها علماء العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجيا بصفة خاصة في صياغة "نظريات " يمكن الركون إليها لدراسة السلوك البشري في سياقاته الثقافية المختلفة .

مناهج البحث المستخدمة في العلوم الطبيعية :

تعرف هذه المناهج مجتمعة باسم المنهج العلمي ، ويمكن تلخيص العناصر الأساسية للمنهج في النقاط الآتية :-

١ : توضيح المشكلة والهدف اللذين ينطوي عليها العمل المحدد الذي نقوم بدراسته ويجب أن تكون هذه المشكلة قابلة للبحث على الأقل من حيث المبدأ . وقد يكون بيان المشكلة مجرد افتراض مطلوب اختباره أو حدث مطلوب وصفه أو أي نوع آخر محتمل من أنواع أهداف البحث (يقصد بالافتراض المحاولة النظرية التي يتم تبنيها بشكل مؤقت لتفسير حقائق معينة وإرشاد الآخرين في البحث).

٢ : يجب تعريف العناصر الجوهرية للمشكلة . وقد يتضمن التعريف مجرد عناصر تعريفية بسيطة أو وحدات تعتبر معلومات عامة بين الباحثين ، مع ذكر التعريفات الإجرائية (القياسات ، أنواع الملاحظات ..الخ) . أو الإشارة الى تعريفات مقررة سلفا لباحث معين أو مدرسة معينة من الباحثين ، ويجب أن تكون جميع عناصر المشكلة المبينة ذات صلة بطبيعة الظاهرة الكونية التي يمكن ملاحظتها مهما كانت طرق التجريد التي يتضمنها ذلك (وأخطر مشكلة في البحث الأنثروبولوجي هي عدم إعطاء العناية الكافية لتعريف الوحدات والمتغيرات).

٣ : يجب وصف إجراءات الملاحظة ذات الصلة بالعناصر الجوهرية المحددة بتفصيل كاف يمكن أي أنثروبولوجي أو أي (عالم) آخر يقرأ مؤلفه من تقييم كفاءة ملاحظات البحث وفهم الخطوات الضرورية لتكرار الملاحظات المتضمنة في جزء من البحث .

٤ : يجب أن يتطابق التحليل التدريجي (الذي يتم خطوة خطوة) لهذه الملاحظات مع القوانين المعتادة للمنطق المستخدم في العلوم .فالمنطق المستخدم في الأنثروبولوجيا هو نفس المنطق المستخدم في جميع فروع العلوم الأخرى (٧) .

وبعبارة أخرى فالمنهج العلمي يعرف بصفة برجماتية فنحن نستخدم المنهج بسبب فعاليته في إعطائنا فهما مفيدا للأفراد والمجتمع . والمنهج ليس ثابتا ولكنه يتغير كلما عرفنا بطرق أفضل للحصول على مثل هذا الفهم ، فنستخدم تقنيات خاصة بالبحث العلمي لأنه قد ثبت لنا فعاليتها في الماضي ، فالمنهج إذن يعرف في إطار نتائجه . ويمكن السماح بأي شئ _ في حدود القيود الاجتماعية والشخصية القائمة وقت البحث _ على شرط أن يكون من شأنه أن يعطينا فهما افضل . فالباحث ليس مكبلا بمجموعة من التقنيات لمجرد أنها استخدمت بنجاح في الماضي ، كما أنه لا يجب عليه الإذعان للمعارف المنهجية التي يفترض فيها التفوق بسبب شهرة الباحثين الذين قاموا بوضعها . فليس من الضروري أن ينظر باستمرار الى الخلف أو الى الوراء ويتساءل ما إذا كان الاخرون سيعتبرون إجراءته "صحيحة" أو غير "صحيحة" فعليه أن يتعلم بقدر ما يستطيع التقنيات التي استخدمها الآخرون لإنتاج المعرفة ولكن ليس هنالك ما يدعوه الى تبني هذه التقنيات فهو يملك الحرية في ابتكار إجراءاته الخاصة . وليست العبرة بما يظن الآخرون بهذه الإجراءات ولكن العبرة بمدى كفاءتها . وإذا كانت هذه الإجراءات ناجحة فإن عملية الاتصال العلمي قد صممت بحيث توصل هذه الحقيقة الى الآخرين ونتيجة لذلك فإنها تعمل على توسيع آفاقهم فيما يتعلق بمناهج البحث الفعالة(٨).

مناهج البحث المستخدمة في العلوم الاجتماعية :

ذهب بول ديزنج الى أن المناهج المستخدمة في العلوم الاجتماعية تنقسم الى أربعة أنواع هي المنهج التجريبي ، وبحوث المسح الإحصائية ، والملاحظة بالمشاركة ، والطرق السريرية والمناهج الشكلية . ونظراً لاشتراك المنهج الشكلي مع المنهج التجريبي في كثير من خصائصه فإننا لن نتعرض في هذا البحث لدراسة المنهج الشكلي ،اذ أشار بول ديزنج في حديثه عن هذا المنهج الى أنه يعتمد أساساً على وضع مجموعة من المسلمات أو التعريفات المستمدة من نظرية تجريبية (٩) .

_١- : المنهج التجريبي :

يتضمن المنهج التجريبي النموذجي مقارنة بين مجموعتين على الأقل تم تكوينها بشكل عشوائي ، ويتم تعريض أحدى المجموعتين لمعالجة معينة ، بينما يتم تعريض المجموعة الأخرى

لمعالجة مختلفة أو لا يتم تعريضها لأي معالجة على الإطلاق ، ثم تجري مقارنة بين المجموعتين من حيث متغير خاص يعتقد الباحث أنه سوف يتأثر بالمعالجة . ويشار الى المعالجة بالمتغير المستقل بينما يشار الى المتغير الذي سيتأثر بالمعالجة بأنه المتغير التابع ،اذ أن طبيعة هذا المتغير _أذا صح افتراضنا _ سوف تعتمد على المعالجة . ويمكن أن تأخذ مقارنة المتغير التابع في مجموعتين أو أكثر أشكالا عدة فيمكن أن تقارن النسبة المئوية للأفراد الذين تظهر بينهم _ في كل المجموعة _ سمة معينة ، أو نقارن الوسط الحسابي في المجموعات أو نقوم بأي أنواع أخرى من التحليلات الأكثر تعقيدا كتحليل التباين (١٠) . ويلجأ الباحث الى استخدام المنهج التجريبي في البحث حين يكون على إلمام كاف بمعظم جوانب الظاهرة موضوع الدراسة ولكنه يريد أن يختبر العلاقة بين متغيرين أو أكثر من المتغيرات المكونة لها . ليس هذا فحسب بل أنه نظرا لتوفر الكثير من المعلومات عن الظاهرة فإنه يستطيع أيضا أن يقوم مسبقا بتخمين أو توقع نوع هذه العلاقة بين المتغيرين ويكون هدفه من الدراسة اختبار صدق أو خطأ هذا التوقع (أي الفرض) (١١).

ويحاول المنهج التجريبي تحديد متغير من المحتمل أن تكون له صفة القانون وذلك بفحص النتائج التجريبية السابقة ومحاولة العثور على التأثيرات المضللة التي تخفي وراءها علاقة ارتباطية خفية . كما يمكن أيضا بحث دراسة حالة أو خبرات المرء الذاتية بمساعدة النظرية بتحديد المتغير الذي قد تكون له صفة القانون . والخطوة التالية هي أن نتخيل موقفا تجريبيا يتم فيه إزالة التأثيرات المضللة أو التحكم فيها بحيث يمكن ملاحظة العلاقة الإرتباطية الخفية بشكل واضح وقد يمكن تحقيق التحكم في هذه التأثيرات بعدة طرق كتثبيت العوامل المضللة أو استبعادها نهائيا . وبعد وضع الضوابط تكون الخطوة التالية هي إدخال المتغير المستقل ثم قياس التغير في التغير التابع ثم تجري مقارنة النتائج بالنتائج التجريبية السابقة للتاكد مما إذا كنا قد اقتربنا _أو لم نقترب _ من العلاقة الخفية المفترضة . فإذا كنا قد اقتربنا منها فإننا نستمر في البحث بنفس الاتجاه أما إذا لم نقترب منها فإننا نبدأ في البحث في اتجاه مختلف . وفي هذا المنهج يتم استخدام اختبارات الجدوى لتقرير ما إذا كان من المجدي الاستمرار في البحث في نفس الاتجاه أو أن من الأفضل محاولة البحث في اتجاه آخر .

ومن المشكلات الكبرى التي تواجه استخدام المنهج التجريبي في العلوم الاجتماعية صعوبة وضع قوانين عامة ، وضبط المتغيرات وفقا لهوى الشخص المجرب . فقد يكون التجريب مفيدا في تقرير من خمس صفحات في إحدى الدوريات النفسية ولكن مثل هذه التقارير لا يجري

تعزيزها إلا بشكل تدريجي جدا لتصبح نسقاً من القوانين العامة وبالتالي فإن العلماء الراغبين في وضع نظرية عامة على نحو متعجل ينتقلون أحيانا الى مناهج أخرى وبالذات المنهج الشكلي تكون أكثر ملائمة لمشاكل النظرية العامة (١٢).

وباختصار فإن المنهج التجريبي هو المنهج الذي تتمثل فيه معالم الطريقة العلمية بصورة واضحة فهو يبدأ بالملاحظة ويتلوها بالفرض ، ويتبعها بتحقيق الفرض بواسطة التجريب ، ثم يصل عن طريق ذلك الى القوانين العامة التي تحكم الظواهر (١٣) .

٢: منهج المسح :

وضع هذا المنهج للتغلب على مشكلة أخرى من مشاكل المنهج التجريبي وهي صعوبة التعامل تجريبياً مع مادة دراسة معقدة و كبيرة الحجم ودائما يتضمن التجريب تجريدا شديدا من التعقيد الطبيعي . وقد قام العلماء الذين أرادوا دراسة مجموعات المتغيرات المعقدة في بيئتها الطبيعية بتصميم منهج المسح لهذا الغرض ومع ذلك فقد تطورت البحوث المسحية وتجاوزت كثيراً هذا الهدف الأصلي وأصبحت منهجاً في حد ذاتها أقترن بالمناهج الأخرى وأثراها بل وأنتج أيضا نوعه الخاص من النظريات .

عند التعامل مع موضوعات كبيرة ومعقدة يتم حل المشكلة التجريبية باختيار العينات والاستعاضة بالضوابط الإحصائية عن الضوابط التجريبية وبالمثل فإن التصحيح والتحقق من صحة المنهج يضمنان في المقام الأول المعالجة الإحصائية للمعلومات ومع التطور المستمر في تقنيات الإحصاء أصبح من الممكن وضع تصميمات بحثية بالغة التعقيد تتضمن الكثير من المتغيرات في عدد كبير من العلاقات وتنتج علاقات ارتباطية معقدة . وهكذا يمكن تجاوز الحدود القياسية للمنهج التجريبي الكلاسيكي ومعالجة تعقد المجتمعات الفعلية بكفاءة اكبر .

من مزايا المنهج المسحي الأخرى أنه يمكن الجمع بسهولة بينه وبين كل المناهج الأخرى فالتجريب قد أثرى بفضل الضوابط الإحصائية مثلاً باستخدام تقنيات العينات لاختبار الموضوعات التجريبية كما استخدم الملاحظون بالمشاركة المناهج المسحية لتوسيع مجال ملاحظاتهم بينما استخدم العاملون في البحث المسحي مجموعة مختلفة من التقنيات السريرية وشبه السريرية (الإكلينيكية وشبه الإكلينيكية) ، والمقابلات المركزة والغير مركزة . Focused and Unfocusedودرجات مختلفة من الملاحظة بالمشاركة والوسائل الإسقاطية لإثراء مادتهم لقد أصبح التنوع في الجمع بين المناهج شديداً جداً كما استخدمت المناهج الشكلية

أيضا معلومات البحث المسحي لإعطائنا تفسيرات وقيما محتملة للمتغيرات الشكلية واقتراح متغيرات وعلاقات جديدة (١٤) .

وعندما تتضمن خطة البحث دراسة أشخاص فإن الباحث قد يقرر :-

١_ دراسة جميع الأفراد الذين يشملهم موضوع البحث

٢_ دراسة جزء فقط من العناصر يتم اختياره من الجزء الأكبر من الأفراد ويطلق على عملية اختيار من بين المجموعة ككل أسم العينة ويطلق على عملية اختيار هذه العناصر المعاينة أو اختيار العينة Sampling.

ويمكن تصنيف معظم خطط اختيار العينة في فئتين من حيث الاحتمال أو عدم الاحتمال على النحو التالي :-

١ :- خطط اختيار العينات المحتملة :

توضح هذه الخطط احتمال إدراج كل عنصر من العناصر . ومن الناحية الفنية فإن هذه الخطط تتطلب أن يفي الباحث بالمتطلبات الآتية :

أ- : يجب معرفة حجم القطاع الذي يتم اختيار العينة منه .

ب- : يجب تحديد الحجم المطلوب للعينة .

ج- : يجب أن تتاح الفرصة المتساوية لكل عنصر أو جماعة من جماعات القطاع للدخول في العينة المختارة ومن الملامح الإيجابية في خطط العينة المحتملة أن العينات التي يتم اختيارها ستعتبر ممثلة للقطاع ومن هنا يمكن التعميم منها على نفس الجماعات والجماعات المتشابهة التي تم اختيار العينة منها . كما أن الباحث يستطيع أن يحدد مدى تصوير عينته وخصائصها أو تمثيلها للقطاع الأصلي وخصائصه _ ويستنتج الباحث أشياء عن القطاع لدراسة خصائص العناصر المستمدة منه وفقا للخطة المستخدمة في اختيار العينة .

ومع ذلك فإن منهج العينة المحتملة لا يخلو من العيوب ،اذ لا يملك الباحث إلا جزءاً من القطاع الكامل للعناصر وبالتالي فأن وجود قدر من الخطأ هو أمر وارد ويتضاءل هذا الخطأ بدرجة اقتراب خصائص العينة من خصائص القطاع ، وكلما صغر حجم العينة زاد احتمال الخطأ فيها (خطأ اختيار العينة) وبالمثل كلما زاد عدد العينة قلت نسبة الخطأ في العينة المختارة . ولكن هذا ينطبق فقط على خطة العينة المحتملة .

٢- : خطط العينة غير المحتملة :

إن خطط العينة غير المحتملة هي التي لا نستطيع أن نتحقق فيها من مطابقة خصائص

العينة من تمثيل النموذج العام parametr للقطاع المستمدة منه العينة والواقع أن الباحث يكون عاجزاً بصفة عامة عن تعريف القطاع الأصلي بالمرة ومن هنا فإن إمكانية تعميم العينات المستمدة بناءً على خطة العينة غير المحتملة تكون محدودة جداً .

ولا معنى لمناقشة حجم الخطأ في اختيار العينة في هذا النوع حيث أن خطط العينة غير المحتملة لم تصمم لتؤدي أي وظائف استنتاجيه . وبصفة عامة فإن الباحثين الاجتماعيين لا يعلقون أهمية كبيرة على إصدار تعميمات عند استخدامهم خطط العينة غير المحتملة . وعلى هؤلاء العلماء الذين يصدرون تعميمات أن يحذروا قراءهم من الحدود التي تحد من صلاحية العينة المختارة (١٥) .

٣- : الملاحظة بالمشاركة :

كان الأنثروبولوجيون هم أول من وضع هذا المنهج وإن كان يستخدم كثيراً أيضا بين علماء الاجتماع ،وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم السياسة (١٦) ، والمنظرين للنظم . والمادة الأولية لهذا المنهج هي نسق اجتماعي واحد يتسم بقدرته على المحافظة على نفسه وقد يكون هذا النسق مجتمعاً محلياً صغيراً له ثقافته الخاصة أو مجتمعاً عاماً كبيراً Society له ثقافته ، كما قد يكون جيرة صغيرة منعزلة ، أو عصبة ، أو زمرة أو تنظيماً تطوعياً ، أو أسرة ، أو مؤسسة ، أو تنظيما رسمياً أو شخصياً (في المنهج الإكلينيكي) ، أو فترة تاريخية . وفي كل حالة من الحالات يكون التركيز على فردية النسق أو كليته أو محدوديته والطرق التي يحافظ بها على فرديته .

والهدف الأول لهذا المنهج هو وصف الفرد في فرديته بوصفه نسقاً من القواعد أو الأهداف أو القيم أو التقنيات أو الدفاع أو آليات المحافظة على الحدود أو التبادل أو آليات عبور الحدود أو إجراءات التنشئة الاجتماعية أو إجراءات اتخاذ القرار وأول خطوات هذا المنهج أن يدخل المرء في النسق ويتعلم مجموعة من الأدوار ويكون علاقات ويشارك في الأعمال الروتينية المعتادة في النسق بحيث يتحول الى صورة مشابهة للنسق من حيث رد الفعل والشعور والتفكير . والخطوة التالية هي أن يضع الباحث افتراضات عن أجزاء النسق مستخلصاً إياها من الموضوعات المتكررة التي تلفت انتباهه ثم يختبر هذه الموضوعات في ضوء المعلومات المتوفرة له . وأثناء قيام الباحث بهذه العملية فإنه يقارن بصفة مستمرة حالته بالحالات الأخرى المألوفة له باحثاً عن المتشابهات والاختلافات . ومن نتائج هذه المقارنة وضع تصنيف للحالات وفقا لأوجه الشبه والاختلاف (١٧) ومن التقنيات المستخدمة في منهج الملاحظة بالمشاركة :-

أ- :الملاحظة المباشرة :

وهي التقنية الأساسية المستخدمة في هذا المنهج وتستمد قوتها من أن الباحث يلاحظ الجماعة لأول مرة ويشهد سلوك المقيمين فيها في مواقف مختلفة وأحياناً يتيح له دوره كملاحظ مباشر أن يحصل على عملية تقييم كامل لدقائق حياة الجماعة (خاصة في الحوادث التي لا يمكن التنبؤ بها ولا يستطيع المقيمون وصفها) .

ب- : الملاحظة بالمشاركة :

وهي تقنية أساسية أخرى يستخدمها الملاحظ المشارك ، فيقوم الباحث بدور داخل جماعة الدراسة ويرتبط بشكل مباشر بأنشطتها . ومن الواضح أن مثل هذا الإجراء البحثي ينطوي على مخاطر عديدة منها أن يصبح الباحث مخلصا جداً لبعض أهداف الجماعة حتى أنه يفقد موضوعيته العلمية ، كما أنه قد يندمج تماما في جماعة معينة بحيث يخاطر بإضاعة الفرصة لدراسة الجماعات الأخرى .

ج- :المقابلات الشخصية :

وهناك فرق بين عقد المقابلة الشخصية مع الإخباري وعقدها مع المستجيب . ففي اللقاء مع الإخباري يطلب الباحث من أعضاء الجماعة المطلعين على الأمور أن يحدثوه عن الأحداث التي وقعت . وبالطبع فإن أكبر تحد يواجه الباحث هو أن يجعل الإخباري يذكر حقائق صحيحة بحيث يستطيع الدارس أن يشكل تعميماته الخاصة التي كثيراً ما تختلف عن تعميمات الإخباري . أما في المقابلة الشخصية مع المستجيبين فإن الشخص الذي تعقد معه المقابلة لا يستخدم كملاحظ مساعد بل أن الباحث جمع معلومات عن الشخص نفسه الذي يعقد معه اللقاء وهذا النوع من المقابلات يشبه النوع المستخدم في بحث الحالة الاجتماعي .

د- :الوثائق والسجلات :

أخيراً فإن على الملاحظ بالمشاركة أن يستخدم مجموعة كبيرة ومتنوعة من الوثائق والسجلات غير المنشورة . ومن مزايا استخدام هذا النوع من المعلومات أنه يوفر على الباحث الكثير من الوقت . وكثيراً ما تعتبر المصدر الوحيد أمام الملاحظ للمعلومات الخاصة بوقائع معينة ويصدق هذا بصفة خاصة على الوقائع التي حدثت منذ زمن طويل بحيث لا يستطيع الأخباريون أن يتذكروها(١٨) والأنواع الأساسية للوثائق التي يهتم بها العالم الأنثروبولوجي هي:

١- : الملاحظات الوصفية والسجلات.

٢- :الخرائط والمخططات والرسوم البيانية والرسوم التشكيلية والصور الفوتوغرافية .

٣- : النصوص ...الخ .

٤- : خرائط النسب وبيانات تعدادات السكان (١٩).

المنهج والنظرية في الدراسات الأنثروبولوجية :

إذا كان التعريف القاموسي لعلم الأنثروبولوجيا هو انه ذلك العلم الذي يدرس البشر من حيث توزيع الأجناس البشرية وأصولها وتصنيفها والعلاقات بينها ، وسماتها الفيزيقية والعلاقات البيئية والاجتماعية والثقافية (٢٠) أو كما جاء في دائرة المعارف البريطانية أنه ذلك العلم الذي يهدف الى دراسة وتفسير الخصائص المميزة لتجمع بشري معين أو النشاط الذي يقوم به هذا التجمع في إطار الزمان والمكان بالنسبة لتاريخ الجنس البشري بصفة عامة (٢١) ، فإن صلة هذا العلم بالدراسات المنهجية تتجلى في أنه يهدف الى وضع تقنيات تكشف عن المعارف والسلوكيات والجوانب الرمزية ذات الجذور الثقافية عند الأشخاص والتي يمكن أن تكون أساساً لوضع مفهومات تفسيرية صحيحة علمياً (٢٢) . وقد برز هذا الاتجاه في مدارس الفكر الأنثروبولوجي المختلفة مع تطور هذا العلم الوليد في القرنين التاسع عشر والعشرين والمحاولات المستمرة لتطوير تقنيات البحث المستخدمة فعلاً ، واكتشاف تقنيات جديدة تواكب التطور النظري الذي جرت في إطاره الدراسات الأنثروبولوجية المختلفة . ونعرض فيما ياتي للتطور التاريخي لمناهج البحث _ نظرياً وتطبيقياً _ في أهم المدارس الأنثروبولوجية .

١- : النظرية التطورية :

تراجع البدايات الأولي لعلم الأنثروبولوجيا الى الأعمال التي قام بها عدد من العلماء منذ قرن ونصف أو يزيد منهم في المجال البيولوجي لامارك بأفكاره عن توارث الصفات المكتسبة وتشارلز داروين في كتابيه المشهورين أصل الأنواع (١٨٥٩) وسلالة الإنسان (١٨٧١) وأفكاره التي تضمنتها نظريته المهمة عن الانتقاء الطبيعي وغيرها .

أما في المجال الاجتماعي الثقافي فيمكن أن ترجع أصول هذا العلم الى الأعمال التي قدمها ديفيد هيوم وآدم سميث في القرن الثامن عشر ونظرتهما الى المجتمع على انه نسق طبيعي .

ويمكن القول أن إسهامات العلماء والمفكرين منذ منتصف القرن الماضي (القرن التاسع عشر) قد أعطت دفعة قوية لهذا العلم وحددت مساره واتجاهاته ونذكر من هؤلاء العلماء هنري مين (١٨٢٢ - ١٨٨٨) وباخوفن (١٨١٥ - ١٨٧٧) وماكلينان (١٨٢٧ - ١٨٨٨) وتايلور (١٨٣٢ - ١٩١٧) ومورجان (١٨١٨ - ١٨٨١) ووليم سميث (١٨٤٦ - ١٨٩٤)وجون لبوك(١٨٣٤ - ١٩١٣)وهربرت سبنسر(١٨٢٠ -١٩١٣) وغيرهم (٢٣) .

ويعتبر هربرت سبنسر (١٨٢٠ – ١٩٠٣) هو أول من قارن المجتمع البشري بالكائن العضوي (البيولوجي) من حيث تطوره ببطء من بناء بسيط متماثل الى نسق معقد يتكون من أجزاء متميزة ولكنها مترابطة في نفس الوقت . ويقال أن سبنسر ، وليس داروين هو الذي أشاع مصطلح " التطور " حيث استخدمه لأول مرة في مقالة بعنوان القوانين النهائية للفسيولوجيا (١٨٥٧) ، كما يقال أنه هو ليس داروين الذي وضع مصطلح " البقاء للأصلح " Survival of the Fittestفي كتابه (مبادئ البيولوجيا)في عام ١٨٦٤ ، وهو أسهام اعترف به داروين عندما غير عنوان الفصل الخاص بالإنتقاء الطبيعي Natural Selecation في الطبعة الخامسة من كتاب أصل الأنواع (٢٤) . وقد رأى سبنسر في التعقد العضوي الشديد الذي وصل إليه لإنسان عبر تطوره البيولوجي أساساً لما أطلق عليه التطور فوق العضوي ورأى أن هذا التطور قد أسهمت في تشكيله عوامل أولية تتمثل في الوراثة البيولوجية والبيئية الطبيعية وعوامل ثانوية برزت من خلال العملية الاجتماعة كاتجاه المجتمع نحو الزيادة في الحجم والكثافة والتفاعل الداخلي المتبادل للجماعات داخل المجتمع والفعل ورد الفعل بين الجماعات ، وأخيراً تراكم النتاجات فوق العضوية كاللغة والمعرفة والأخلاق والجماليات أو ما يطلق عليه الأنثروبولوجيون الأن الثقافة . وفي تأكيد سبنسر على أهمية استخلاص كافة العناصر التي تحدد سمات شعب من الشعوب أو شكل من أشكال المجتمع فإنه ركز على دور المناهج المقارنة ودراسة أكبر مجموعة ممكنة من الشعوب سعياً الى فهم تكوين وعلة وجود التقاليد والنظم مع التركيز بصفة خاصة على المجتمعات البدائية التي كانت صغيرة الحجم حتى يسهل فهم وتحليل طريقة هذه المجتمعات في الحياة بشكل كامل (٢٥) .

وعلى حين حاول سبنسر تطبيق مبادئ الانتقاء الطبيعي على المجتمعات البشرية فإن ادوارد بيرنت تايلور (١٨٣٢ – ١٩١٧) قد استخدم الأدلة الأثرية بالطريقة نفسها التي استخدم بها وصف طرق حياة الشعوب الحية في محاولة منه لوضع صيغة موحدة للتغير الثقافي وبالذات فيما يتعلق بالدين الذي كان محل اهتمامه الرئيسي . وقد اعتقد تايلور _ كما أعتقد مورجان من قبل _ أن المجتمعات كلها قد تطورت من خلال مراحل متشابهة الى حد بعيد وانه خلال كل من هذه المراحل كان هناك قدر كبير جداً من التشابه بين المجتمعات لدرجة انه يمكن الوصول الى أستنتاجات عن ماضي مجتمع " متحضر " من خلال دراسة فكرة " متوحشة " أو " بربرية " معاصرة . وقد أطلق على هذا المنهج لإعادة بناء الماضي " المنهج المقارن " . ورغم أن المنهج المقارن كان يعتبر ركناً أساسياً في التطور الأحادي للثقافة الذي ساد في القرن التاسع

عشر فقد نشأت بعض المصاعب في الطريقة التي استخدم بها المنهج في المدرسة التطورية . فإذا كان من المشروع لنا أن نستنتج أن العمليات أو السمات المنتظمة الموجودة Regulation الآن كانت موجودة أيضاً في الماضي (فالماء كان يغلي عند درجة مائة مئوية في الضغط المعتاد في عصر البلايستوسين كما هو الحال اليوم تماماً وعليه فإنه إذا كانت الملكية المشتركة للسلع ترتبط باقتصاد الصيد والجمع بنفس طريقة ارتباط درجة المائة بغليان الماء فإنه يمكننا أن نستنتج أن جماعة تعيش في عصر البلايستوسين وتمارس اقتصاد الصيد والجمع كما يبدو من الأدوات المستخدمة _ كانت تعرف الملكية المشتركة) . والمشكلة أن الارتباط بين المعتقدات الثقافية والقيم الثقافية من ناحية والأدوات التي تبقى على الأرض من ناحية أخرى هو ارتباط معقد ، فهنالك نوع ثقافي كبير بين الشعوب المعاصرة المختلفة التي تستخدم الأدوات ذاتها . والأدلة الرئيسية التي نمتلكها على ثقافة جماعات ما قبل التاريخ هي أدواتها وعظامها ومواقع سكنها . ولكي نستنتج أموراً من قبل طبيعة حقوق الملكية أو نظام القرابة من البقايا الأثرية فأنه لا بد لنا من أن نثبت وجود علاقة وثيقة بين أنواع معينة من الأدوات وجوانب الثقافة التي تحكم أو السياسة أو القرابة ولم ينجح التطوريون في القرن التاسع عشر في إثبات هذه العلاقات فكانت الارتباطات التي اعتمدوا عليها بين التكنولوجيا والأشكال الثقافية هي نتاج تأملاتهم أكثر منها اكتشافات تجريبية . والمنهج المقارن الذي استخدموه هو منهج مقبول تماماً أما الشئ الذي لا يمكن قبوله فهو استخدامه لإعادة بناء التاريخ . بينما تكون العمليات أو السمات المنتظمة الأساسية المستخدمة هي عمليات أو سمات لا أساس لها في العالم الواقعي للحياة الاجتماعية .

ورغم ذلك فإنه يجدر بنا في هذا الصدد أن نشير الى أن تايلور قد استخدم الإحصائيات وجمع معلومات من ٢٨٢ مجتمعاً (وإن لم يجمعها بنفسه بل أعتمد في جمعها على تقارير الرحالة والمبشرين) وذلك عندما كان يكتب في سنة ١٨٨٩ مقاله المشهور " منهج لبحث تطور النظم " (٢٧) . لمجلة المعهد الأنثروبولوجي الملكي .

وبينما تأثر هربرت سبنسر بفكرة المماثلة البيولوجية بين الكائن الحي والمجتمع من حيث البناء والوظيفة ، واعتمد تايلور على القوانين التاريخ الطبيعي للجنس البشري فإن التطوري الاميركي لويس هنري مورجان (١٨١٨ – ١٨٨١) ربما كان أول من أستخدم منهج الملاحظة بالمشاركة في جمعه لمادة كتابه " عصبة الإيروكوا " (١٨٥١) (٢٨) ،اذ كان على صلة وثيقة بهنود الإيروكوا ثم كون جمعية كان أعضاؤها يتبعون عادات الإيروكوا كما أعتاد أعضاء هذه الجمعية تحت رئاسة مورجان أن ينظموا اجتماعات يرتدون فيها ملابس وفساتين هنود الإيروكوا

وكان مورجان يقابل هؤلاء الهنود كثيراً وشعر أن ثقافتهم كانت تتغير بسرعة وانه يجب تسجيلها ونشرها قبل فوات الأوان وهكذا فبينما كان مورجان يزور ويقابل الكثير من هنود الايروكوا أتيح له أن يجمع قدراً كبيراً من المعلومات التي نشرها في كتاب عصبة الإيروكوا . ويعتبر هذا الكتاب أول وصف علمي لهنود الإيروكوا حيث لم يكتف مورجان بالوصف الدقيق لرقصات وألعاب ومعتقدات ولغات الإيروكوا وثقافتهم المادية بل أنه وصف أيضاً شكل الحكومة والتنظيم الأسرى بين هؤلاء الهنود . من هنا يمكن القول بأن مورجان قد استمد كتابه الشهير من مقابلاته الشخصية وزياراته وملاحظاته الميدانية (من خلال جمعية الإيروكوا) (٢٩) .

ولم يكن هذا هو الإسهام المنهجي الوحيد لمورجان في الدراسات الأنثروبولوجية بل إليه يرجع الفضل في إدخال الدراسة المقارنة لنظم القرابة لأول مرة الى ميدان الأنثروبولوجيا ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه الدراسة تؤلف جزءاً جوهرياً في البحث الانثروبولوجي فقد قادته الملاحظة الى استنتاج وجود نسق تصنيفي (٣٠) . لمصطلحات القرابة بين الايروكوا . اذ لاحظ أن الطفل عند الايروكوا يطلق على شقيقه أمه كلمة الأم وعلى كل أخوة أبيه كلمة الأب وعلى كل شقيقات جدته كلمة الجدة . ومن المفارقات الغريبة أن هذه الملاحظات التي اعتمدت على المعايشة والمشاركة الكاملة للمجتمع موضوع البحث (الإيروكوا) قد قادت مورجان الى استخدام منهج آخر يكاد يكون مناقضاً تماماً في تقنياته (وربما في نتائجه) لمنهج بالمشاركة فقد تأثر مورجان باكتشاف النسق التصنيفي لمصطلحات القرابة تأثيراً شديداً دفعه الى أن يضع استفتاء يتكون من سبع صفحات ويحتوي على حوالي مائتي سؤال ، ثم أرسل هذا الاستفتاء الى البعثات الأجنبية والبعثات الدبلوماسية المختلفة في الولايات المتحدة الامريكية .

ورغم أن كثيراً من هذه البعثات لم تعد إليه هذا الاستفتاء بعد استيفائه إلا أن بعض الإجابات التي تلقاها قد أكدت له أن بعض القبائل الهندية الأميركية الأخرى كانت تستخدم أيضاً مصطلحات قرابة مماثلة بل أن مورجان تلقي معلومات تفيد بأن التاميل في الهند كانوا يستخدمون نسقاً تصنيفياً لمصطلحات القرابة مما جعل مورجان يستنتج أن قبائل الهنود الأمريكيين كانت من أصل أسيوي . وقد ضمن مورجان تفاصيل هذه الاستفتاءات في كتابه " أنساق روابط الدم والمصاهرة في الأسرة (العائلة) البشرية " (١٨٧٠) .

ورغم هذه الإسهامات المنهجية المهمة فقد أخذ مورجان أنه قد خلط بين عمليات إعادة البناء التتابعية والمتزامنة . كما أنتقد وصفه للثقافات المعاصرة في أطار مراحل تاريخية فربطه بين المراحل لا يتفق مع الأدلة الاثنوجرافية ويمكن تنفيذه بسهولة حتى بالملاحظة العابرة كما أنه لم

يتعرض لجوانب كثيرة من الثقافة كالدين مثلاً (٣١) .

٢- : المنهج الأنثروبولوجي عند الانتشاريين :

ذهب الانشاريون الى أن انتشار السمات الثقافية بين الثقافات المتباعدة أو القريبة يساعد على تهيئة الظروف الكفيلة بأحداث التغير الثقافي أو الانتقال من مرحلة الى أخرى ومن ثم أبرزوا أهمية الاتصال الثقافي أو التفاعل بين الجماعات وبالتالي انتقال السمات الثقافية من مجتمع الى أخر ويمكن القول بصفة عامة أن هناك ثلاث مدارس أساسية تنضوي تحت لواء الانتشارية هي : البريطانية ويتزعمها اليوت سميث (١٨٧١-١٩٢٢) و وليام بيري (١٨٨٧ - ١٩٤٩) وريفرز (١٨٦٤ - ١٩٠٤) والألمانية _النمساوية ومن أقطابها ريتسل (١٨٤٤ - ١٩٠٤) وجربنر (١٨٧٧ - ١٩٣٤) وليو فوربينيوس (١٨٧٣ - ١٩٣٨) والأمريكية وعلى رأسها كلارك ويسلر (١٨٧٠ - ١٩٤٧) والفريد كروبر (١٨٧٦ - ١٩٦٠) أما أكثر أقطاب هذه المدرسة تأثيراً في الدراسات الأنثروبولوجية فهو بلا شك فرانزبواس (١٨٥٨ - ١٩٤٢) .

أ-: المدرسة الانتشارية البريطانية :

رغم أن الانتشاريين قد أسهموا إسهاماً كبيراً في دراسة الثقافة بأبعادها التاريخية فإن أسهامهم في تطوير مناهج البحث الأنثروبولوجية كان متواضعاً للغاية . فالمدرسة البريطانية مثلاً التي جسدها كما سبقت الإشارة كل من جريفتون أليوت و وليم جيمس بيرى وو. ريفرز لا يكاد يكون لها أي إسهام من الناحية المنهجية فقد كان علماء الأثنولوجيا الألمان والإنجليز في أوروبا لا يزالون يهتمون بأصول الثقافة الإنسانية ، فحاولوا اكتشاف أقدم أشكال هذه الثقافة عن طريق رسم خرائط لتوزيع السمات الثقافية في المجتمعات الأمية أو التي لا تعرف الكتابة و القراءة وافترضوا أن أكثر هذه السمات انتشاراً من حيث توزيعها هي أقدمها . ولقد حاول بعض الأنتشاريين بتصميم شديد إثبات أن الثقافة الإنسانية كلها قد نشأت في مكان واحد ثم انتشرت من خلال الاحتكاك الثقافي أو الانتشار . فقادت التشابهات بين الأهرام المصرية ومعابد المايا وتلال الدفن عند سكان أمريكا الوطنيين علماء انثربولوجيا من أمثال جريفتون إليوت سميث و و ج . بيري الى إستنتاج أن مصر كانت مصدر الحضارة والثقافة الإنسانيتين (٣٢) . ومن الواضح أن هذه الافتراضات لم تستند الى أي شكل من أشكال البحث المنهجي المنظم وأن مقارنة سميث بين الأهرام المصرية والمباني الحجرية الأخرى في العالم إنما اعتمدت فقط على التشابه الظاهري بينها .

وربما كان و .و. ريفرز هو الانتشاري البريطاني الوحيد الذي أسهم إسهاماً مباشراً في " المنهج" الأنثروبولوجي بدراسته التي وضعها عن " المنهج الجينالوجي لجمع الإحصائيات الاجتماعية والحيوية" والذي كتبه ونشره سنة ١٩٠٠ في مجلة المعهد الملكي للأنثروبولوجيا في بريطانيا . وقد جاءت هذه الدراسة نتيجة لرحلته كعضو في حملة مضيق توريس الشهيرة (١٨٩٨) التي كانت أول حملة أنثروبولوجيا تعتمد على اشتراك علوم متعددة والتي كانت تهدف الى تغطية جميع جوانب الحياة البدائية وذلك بواسطة باحثين مدربين ومنذ ذلك الوقت أصبح " المنهج " الجينالوجي أداة بحث قياسية في علم الأنثروبولوجيا لجمع المعلومات العلمية خاصة عن مصطلحات القرابة والسلوكيات الاجتماعية المتصلة بها . وقد ذهب ريفرز – في مجال إسهامه في النظرية الانتشارية –الى أن الهجرة كانت هي السبب الرئيسي لانتشار السمات الثقافية من مجتمع الى أخر . ولكن على الرغم من أهمية إسهام ريفرز في مجال المنهج الجينالوجي فإن نظريته حول تأثير الهجرة على انتقال السمات الثقافية لا تبرر لنا مثلاً كيف نشأت السمة الثقافية في الأصل وقبل الانتقال من مجتمع الى آخر .

وهكذا يمكن القول بأنه باستثناء إسهام ريفرز في تأسيس الطريقة الجينالوجية قام أصحاب هذه المدرسة ببعض الدراسات الحقلية فإن إسهامهم جميعاً في وضع أو تطوير منهج بحثي محدد لدراسة الثقافات البشرية كان محدوداً للغاية حيث أعتمد بعضهم على الأدلة الأثرية بصورة مبالغ فيها ، ولم يأتوا بمبررات كافية –تجريبياً– لقولهم أن مصر كانت مركز الثقافة الوحيد في العالم وكان أي تشابه بين السمات الثقافية لمجتمعين مختلفين كافياً في نظرهم لتأكيد حدوث الاحتكاك التاريخي والهجرة بين المجتمعين (٣٤) .

ب– : المدرسة الانتشارية الألمانية :

تدين المدرسة الأنتشارية الألمانية بوجودها لفيدريك ريتسيل ، وقد ذهب برونيسلاف مالينوفسكي في كتابه الشهير " النظرية العلمية للثقافة " الى أن تصحيح هذه المدرسة لمفهوم التطورية القديمة إنما يتمثل أساسًا في النظر الى العمليات التاريخية في سياق العلم كله . فعنده أن وجهة النظر الأنثروبوجرافية تعنى من ناحية دراسة كل ثقافة في إطار بيئتها الطبيعية . كما أنها باعتبارها منهجاً تتطلب أيضاً طرح مشكلات ثقافية يشار إليها من خلال خريطة ، وهي خريطة توضح توزيع الثقافات من حيث أجزائها المكونة . وانطلاقاً من مفهوم أن العلم دائماً ما يستفيد بالانتقال الى نسق آخر من أنساق المحددات (العوامل المحددة) ، فإن هذه الحركة قد قدمت – في رأي مالينوفسكي– خدمات عظيمة للأنثروبولوجيا . ويتمثل الإسهام الأكبر لريتسيل

في إدخاله لبعدين ملموسين على مجالات الدراسات المقارنة الأجناس والقبائل والثقافات . ففي كفاحه للتغلب على " الخوف من الزمان والخوف من المكان " وهو الخوف الذي يعزوه الى التطوريين ، قدم لنا خريطة العالم ومقدمة لتسلسل زمني أكثر تفصيلاً فيما يتعلق بكل تأملاتنا أو تخميننا للأصول والتطورات . وهكذا استطاع ريتسيل بحسه الجغرافي والتاريخي المرهف أن يرى ويثبت أن الكثير من التشابهات في الأشياء المصنوعة ، والوسائل والعادات ، والأفكار يجب أن تشرح ليس اعتماداً على المبدأ القائل بظهور تشابهات معينة من التطور ولكن بإثبات الاحتكاك المباشر بين الثقافات وانتشار الاختراعات من خلال التنقل . وهكذا أصبح الانتشار ، وهو اللفظ الذي يطلق على اتخاذ السمات الثقافية ، هو المبدأ الرئيسي في التفسير الأثنوجغرافي . وهكذا يعتبر مالينوفسكي أن فريدريك ريتسيل هو واحد من رواد دراسة الثقافات الإنسانية المقارنة (٣٥) .

ولكن هذ الاشادة بمحاولات فريدريك ريتسيل المنهجية سرعان ما تنقلب – عند مالينوفسكي – الى هجوم على الانتشارية متمثلة في زعيمها الثاني فريتس جريبنر ، حيث ذهب مالينوفسكي الى أن الانتشارية قد ارتبطت من خلال تأثير أمناء المتاحف من أمثال جريبنر ، بفكرة تجميع أشياء لا رابط بينها ولا تعريفاً جيداً يجمعها وقد تكدست في نوافذ العرض الزجاجية وأقبية المبنى القديم (المتحف) . ومع ذلك فلما كان أساس الانتشارية هو تعريف الصحيح للوقائع الثقافية مرسومة على خريطة ، فإن التعريفات الزائفة التي تقوم على القاعدة الشهيرة للشكل والكمية ، قد أسهم في أحداث فوضى شاملة وعصف بالتطور السليم لما كان يمكن أن يكون – لو لا ذلك – اتجاهاً مقبولا في جوهره . ويذهب مالينوفسكي في موضع أخر من " النظرية العلمية للثقافة " الى أن الافتراضات التاريخية لفوربينيوس و ريفرزوشميدت و جريبنر ، والتعريفات الكاسحة " للمركبات الثقافية " في كل مكان في العالم لن يكون من السهل أن تفي بالغرض المطلوب منها ، فهذه الافتراضات تتسم بنظرة الى الثقافة لا عضوية و لا حياة فيها بل تتعامل مع الثقافة كشيء يمكن أن يحافظ في مكان تخزين بارد لعدة قرون ثم يتفاعل عبر المحيطات والقارات ثم يتم تفكيكه وإعادة جمعه بطريقة آلية (٣٦).

ومن المفاهيم المنهجية الجديدة التي يرجع الفضل فيها الى المدرسة الانتشارية الألمانية مفهوم الإحصاء الجغرافي الذي كان أول من أدخله ليوفوربينيوس(١٨٧٣ – ١٩٣٨) والذي كان من تلاميذ ريتسل . وكان يعني بهذا المفهوم أنه يمكن للمرء أن يحصى عدد التشابهات ، كما انه أدخل عاملاً آخر هو المعيار البيولوجي أو التطور ، فذهب الى ان الناس عندما يهاجرون

الى بيئة جديدة يضطرون الى تعديل ثقافتهم فتتغير بعض سماتها بينما تختفي بعض السمات التي لا فائدة منها في البيئة الجديدة .

وبهذا فإن فوربينيوس يعتبر أول إنتشاري ألماني يطور مفهوماً كمفهوم الإحصاء الجغرافي و لا يكتفي بالحديث عن التشابهات بين السمات الثقافية بل يهتم أيضاً بالاختلافات بين هذه السمات . ولكنه مع ذلك – في معرض حديثه عن انتقال الأساطير بين الثقافات المختلفة – لم يوضح لنا السبب في اعتبار الثقافات الأعلى هي الأصل في نشأة الأسطورة بينما الثقافات الأدنى هي الثقافات المقلدة .فمقارنة بين الأساطير في أندونيسيا والأساطير في غرب أفريقيا هي من قبيل التصور المسبق (٣٧) .

مما سبق يمكن القول أن المدرسة الانتشارية الألمانية كانت تأملية محضة وركزت على الثقافة المادية ولم تقم بدراسة كل ثقافة على حدة واستمدت قوتها من تصنيف السمات الثقافية أكثر مما استمدتها من مغزى انتشار هذه السمات.

ج- : المدرسة الانتشارية الأمريكية :

على الجانب الآخر من المحيط كان فرانزبواس (١٨٥٨ – ١٩٤٢) الذي يعد شيخ الأنثروبولوجيين الثقافيين في أمريكا يرفض دراسة التطور التاريخي كتطور أحادي الاتجاه ، وينتقد استعداد التطوريين لاستخدام السمات الثقافية (سواء كانت مصطلحات قرابة أو تصميمات فخارية) خارج سياقها الثقافي كأساس لوضع تواليات التطور الثقافي فكان يرى أن التصميمات الفخارية مثلاً لابد وأن ينظر إليها على ضوء ما كانت تعنيه للشعب الذي صنعها وعلى ضوء الكيفية التي أثرت بها في طريقة استخدام الفخار كما أن تاريخ المصطلح القرابي لا يمكن أن نتعرف عليه إلا إذا نظر الى هذه المصطلح كجزء من النسق الكلي للمصطلحات والعلاقات بين الأقارب في كل مجتمع من المجتمعات التي تستخدم المصطلح . وكان بواس يصر على أن تكون أي عمليات تقدم كتفسير للحالة الراهنة للثقافة قد أثبتت إثباتاً كاملاً بأدلة يمكن الاعتماد عليها (٣٨) . ومن هنا كان بواس يرى ضرورة الاكتفاء في الأبحاث الأنثروبولوجية بدراسة ثقافات معينة بالذات مع تتبع انتشار سماتها وملامحها في مناطق ثقافية محددة وليس في العالم أجمع وذلك تبعاً لتوافر المعلومات والحقائق والبيانات اليقينية المؤكدة . فلم يكن استخدام المنهج التاريخي في نظر بواس يعنى أذن البحث عن تاريخ ثقافة الجنس البشري كله وإنما هو دراسة تاريخ ثقافة مجتمع محدد بالذات كما أن الأنثروبولوجيا ذاتها لم تكن تعني عنده دراسة تطور

الثقافة البشرية ومراحل ذلك التطور بقدر ما كانت تعني دراسة ثقافات معينة يؤلف كل منها وحدة وظيفية متكاملة ومتماسكة .

وواضح من هذا أن بواس كان يتبع في دراساته منهج التأويل التاريخي رغم إيمانه بضرورة التركيز على دراسة مجتمعات وثقافات معينة بالذات ، ورغم انه يعتبر من أكبر أنصار الاتجاه الوظيفي وأحد الذين وضعوا أسسه ، إلا أنه اتجه هذا الاتجاه التاريخي لاعتباره أن أية ثقافة من الثقافات ليست في حقيقة الأمر إلاحصيلة لنمو تاريخي معين يجب أن يسلم به الباحث ليتمكن من فهم هذه الثقافة فهماً دقيقاً . ولكنه لم يقصد بالتاريخ تلك الحتمية التاريخية الشاملة التي لا تترك شيئاً للمصادفات أو للفرد لكي يؤثر في سير الثقافة وفي التغير الثقافي (٣٩) .

ولما كان بواس عالم رياضيات مدرباً فقد استخدم تقنيات الإحصاء في تحليله للمعلومات الخاصة بالأنثروبولوجيا الفيزيقية فجمع بذلك الى كونه أثنوجرافيا ممتازاً وأنثروبولوجيا ثقافياً شهيراً في مجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية أسهم كثيراً في هذا المجال .

ومن الإسهامات الهامة الأخرى لبواس انه كان يدعو الى الاهتمام بالدراسة الحقلية كجزء من أي برنامج تدريبي يخصص للأنثروبولوجيين كما أوصى بان يمضي الطلاب سنة مع مجتمع الدراسة وأن يتعاملوا مع هذا المجتمع بلغته الخاصة (٤٠) .

ولكن في مقابل هذه التجربة الواضحة عند بواس فإن تلميذه كلارك ويسلر (١٨٧٠ – ١٩٤٧) كان يرى أن علماء الأنثروبولوجيا يتعنتون في اتجاههم التجريبي العلمي لدرجة أنهم يرون أن مهمتهم تنحصر في التسجيل ووصف ظواهر الثقافة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن أصولها أو عملياتها فضلاً عن قوانينها ويأخذ على بعضهم اعتبار الثقافة ظاهرة قائمة بذاتها ومتميزة عن غيرها وانه لا يمكن بذلك تفسيرها ألا بألفاظ الثقافة وهو موقف غير مقنع في نظره فقد كان ويسلر ينظر الى الثقافة على أنها حصيلة السلوك الإنساني ولذا كان يرى أنه لا بد من محاولة تحديد أساسها وأصلها البيولوجي وهذا معناه في النهاية أن الفصل القاطع بين الظواهر السيكولوجية والثقافية فصل مصطنع (٤١) .

كان ويسلر مهتماً بدراسة فترة ما قبل التاريخ عند الهنود الأمريكيين وقاده ذلك الى خرائط استناداً الى معلومات أثرية وإثنوجرافية وعندما لاحظ وجود درجة كبيرة من التطابق بين الماضي والحاضر استنتج أن ثقافات الهنود الأمريكيين هي ثقافات مستقرة تماماً وبالتالي فإن مناطقها الثقافية كانت مستقرة أيضاً (كان ويسلر قد صنف الهنود الأمريكيين الى تجمعات

اجتماعية محددة وفقاً لسماتها السائدة ومواقعها الجغرافية) ومع ذلك فعندما حاول ويسلر الربط بين النتائج التي توصل إليها عن المناطق الثقافية والغذائية بين الهنود الأمريكيين والتصنيفات اللغوية والعرقية فإنه وجد أن هذه الرابطة أضعف كثيراً مما كان يتوقع وعندما فشل في تفسير هذا الوضع المحير بدأ يتحدث عن انتشار السمات الثقافية التقليدية . وكان الانتشار هو التفسير المنطقي الوحيد لذلك حيث ذهب الى أنه يوجد في كل منطقة ثقافية مركز هو موضع الاستقرار الأول الذي انتشرت منه السمات المختلفة (٤٢) .

أما ثالث الانتشاريين الأمريكيين الذين كان لهم فهمهم الخاص للمنهج التاريخي وتطبيقه في الدراسات في ألأنثروبولوجية فهو الفريد لويس كروبر (١٨٧٦ – ١٩٦٠) وكان هو الآخر من تلاميذ فرانز بواس . وقد ميز كروبر بين نوعين من المناهج ، منهج العلوم الطبيعية والمنهج التاريخي وأخذ التاريخ بمعنى يختلف اختلافاً عن المعنى الشائع بين الناس من أنه هو دراسة تتابع الظواهر والأحداث في الزمن وانه بذلك يتناول دراسة أزمان كثيرة متنوعة . فقد كان كروبر يرى أن هذه نظرة خاطئة وفهم غير دقيق للتاريخ وإنما الذي يميز التاريخ في نظره هو محاولة إعطاء وصف متكامل لموضوع الدراسة وليس معالجة التتابع الزمني كما أن ما يميز المنهج العلمي هو محاولة تحليل العمليات المختلفة في حدود وألفاظ كمية . وعلى هذا الأساس كان كروبر يعتقد في إمكان استخدام المنهج التاريخي في دراسة الأحداث والوقائع الحالية وكذلك في دراسة الظواهر التي تحدث في زمن محدود وهو ما يعرف عموماً باسم الدراسات المتزامنة Synchronicوهذا هو ما يفعله في الحقيقة العالم الأنثروبولوجي حين يقوم بأبحاثه الحقلية التي تستهدف دراسة ثقافة مجتمع معين بالذات . وهذا بالطبع علاوة على دراسة الظواهر المتتابعة والتي تحدث في أزمان متعددةDiachronic فكأن ما هية التاريخ لا تنحصر في عنصر الزمن . كما أن الذي يميز الدراسة التاريخية هو الوصف التحليلي لأي مجموعة من الظواهر الثقافية في موقف معين بالذات . وعلى ذلك فإن الدراسة التاريخية تأخذ في اعتبارها عنصر المكان الى جانب عنصر الزمان (٤٣) .

ولعل هذا هو ما دفع مالنوفسكي الى اعتبار كروبر زعيما لإتجاه إحياء تحليل السمات ،اذ ذهب الى أن كروبر يرى تحليل السمات وتحديد خصائص الثقافة من خلال السمات أو مركبات السمات يتوقف على ما إذا كان من الممكن عزل هذه السمات كوقائع بحيث يمكن مقارنتها في الملاحظة والنظرية . وقد أورد مالينوفسكي نصاً مهماً في هذا الصدد هل العناصر أو العوامل التي نحن بصددها ، وهي السمات الثقافية ، مستقلة كل منها عن الآخر ؟ رغم أننا لسنا مهيئين

للإجابة على هذا السؤال بشكل تفصيلي فإننا نعتقد أن السمات الثقافية هي في الحالات الأساسية ، إن لم يكن في جميع الحالات ، هي سمات مستقلة . والسبب في ذلك أن عدداً كبيراً من السمات قد ثبت المرة بعد المرة ، وفي جميع مجالات الثقافة ، وفي كل أنحاء العالم أنها تنشأ في أزمنة لا رابط بينها وإن كانت في أوقات أخرى أو أماكن أخرى أو في أماكن أخرى تظهر مترابطة بشكل مؤكد ، بحيث يمكن أن نستنتج مطمئنين – حتى يثبت العكس – أن جميع السمات يمكن أن توجد مستقلة بعضها عن بعض..(٤٤).

المنهج عند التطوريين الجدد :

بينما تحدث التطوريون الكلاسيكيون في القرن التاسع عشر عن التطور الثقافي بهدف اكتشاف القوانين الثقافية فأن القرن العشرين قد شهد اتجاهاً تطورياً جديداً اعتمد على تعديل نظرية ومناهج التطوريين السابقين وذلك على ضوء الأبحاث الجديدة التي قام بها التطوريون الجدد ومداخلهم المنهجية لدراسة أصل الثقافات ومن هؤلاء جوردون تشايلد (١٩٠٢ – ١٩٥٧) وجوليان ستيوارد (١٩٠٢ – ١٩٧٢) وليزلي هوايت (١٩٠٠ –١٩٧٥) ففي إنجلترا استخدم عالم الأنثروبولوجيا الشهير ف. جوردون تشاليد (١٨٩٢ – ١٩٥٧) السجل الأثري ليثبت أن بعض التطورات التقنية الكبرى في تاريخ الإنسان كأستناس النباتات والحيوانات و زراعة الري واختراع صناعة المعادن الخ قد أحدثت تغيرات ثورية في النسيج العام في الحياة الثقافية للإنسان ، فتغيرت الأبنية الاجتماعية والسياسية وجرى تنظيم مضمون المعارف التي فهم بها الإنسان واقعه . وقال تشايلد أن السجل الأثري يشير الى النمط الشامل لهذه التغيرات كان نمطاً تطورياً وتقدمياً في طبيعتهم فقد تقدم الإنسان من الصياد والجامع الباليولثيى المتنقل البسيط ليحيا حياة فلاحة الأرض المستقرة في جماعات نيوليثية محكمة . ومن القاعدة النيوليثية ظهرت الحضارات المدنية الكلاسيكية في العالم القديم – مصر ومابين النهرين واليونان و روما (٤٥) .

أماالأنثروبولوجي الأمريكي ليزلي هوايت (١٩٠٠ – ١٩٧٥) فقد قال بالتطور الثقافي التراكمي بوصفه من أتباع المدرسة التطورية الإ أنه جنح الى وضع عدد من المعادلات ذات الطابع " العلمي" في مظهرها من ذلك مثلاً أنه ذهب الى أن الثقافة هي في أساسها آلية (ميكانزم) للبقاء وأن الطاقة مطلوبة لإمداد الإنسان بضرورات استمراره في الحياة ، كما ذهب الى أن الإنسان في المرحلة الاولى من تطوره كان يستخدم جسمه كمصدر رئيسي للطاقة ولكنه بدأ بعد ذلك في تسخير النار والماء والرياح ....الخ .

وفي كتابه الشهير " علم الثقافة " الذي ظهر في عام ١٩٤٩ وضع أهم إنجازاته النظرية للمدرسة التطورية الجديدة حيث أشار الى أن كفاءة التكنولوجيا قد ازدادت مع تطور الثقافة بحيث زادت كمية الطاقة التي يتحكم فيها كل فرد فحاول ليزلي هوايت بذلك أن يدرس التطور الثقافي في أطار التطور التكنولوجي والعلمي – ونتيجة لذلك فقد أقترح بعض الصيغ أو المعادلات التي سبقت الإشارة إليها التي كانت من أهمها المعادلة القائلة : ط × ت = ث

حيث ط تمثل الطاقة ، و ت تمثل التكنولوجيا و ث ترمز للثقافة

(أو بالإنجليزية){E x T = C } Energy = E , Technology = T , Culture = C)

(كما صاغ معادلة أخرى تقول بأن التنظيم الاجتماعي أنما تحدده ثلاث عمليات هي : التغذية والحماية والتكاثر : أي كيف يقوم أعضاء النسق الاجتماعي بتغذية أنفسهم وكيف يحمون أنفسهم وكيف يتكاثرون وكانت الصيغة أو المعادلة التي لإقترحها هي : التغذية × الحماية × التكاثر = التنظيم الاجتماعي :

ومهما يكن من أمر فإنه يمكن القول أن محاولات ليزلي هوايت إضفاء الطابع العلمي على نظريته لا يمكن أن تجعل من هذه النظرية ، نظرية علمية من الناحية المنهجية حيث أسس كل " معادلاته " على افتراضات تطورية بحته .

ونصل الى واحد من أهم زعماء الأتجاه التطوري في الولايات المتحدة الأمريكية وهو جوليان ستيواد (١٩٠٢ – ١٩٧٢) الذي أدان المدخل التطوري العالمي الذي قال به كل من ليزلى هوايت و جوردن تشايلد وذلك لعجز هذا المدخل عن الإجابة على السؤال الخاص بالاختلافات والتشابهات الثقافية النوعية باعتبارها متميزة عن التعميمات الغامضة المبهمة لقوانين عالمية الثقافة (٤٧) . وقد تأثر جوليان ستيوارد بشكل خاص بالتوازيات في تطور الحضارات القديمة في بيرو و المكسيك ومصر وبلاد ما بين النهرين والصين ودعا الى بذل جهود جديدة من جانب علماء الأنثروبولوجيا لدراسة وتفسير هذه التشابهات الملحوظة ومع ذلك فإن ستيوارد كان حريصاً على أن يميز فكرته عن التطور الثقافي والأشكال المتطرفة للتطورية التي سادت في القرن التاسع عشر . فعند ستيوارد أن المشكلة عند التطوريين الأوائل كانت تكمن في افتراضهم وجود مجموعة وحيدة أو أحادية الخط "من مراحل التطور لجميع الثقافات بينما هناك مسارات عديدة فعلاً أو متعددة الخطوط للتطور تتوقف على الظروف الأولية البيئية والتكنولوجية وغيرها (٤٨) . وهكذا شرع ستيوارد يكتشف أوجه الشبه بين المجموعات التي تعيش في بيئات متشابهة

وتستخدم وسائل متشابهة في التعامل مع هذه البيئات من أجل الحصول على المأكل والمأوى والدفاع ويلخص ستيوارد هذا المدخل بقوله :

" لقد حاولت في دراسات متنوعة أن أثبت كيف أن التكيفات البيئية الثقافية – أي العمليات التكيفية التي يتم من خلالها تعديل ثقافة مستمدة تاريخياً في بيئة معينة – هي من العمليات الخلاقة المهمة في التغير الثقافي " (٤٩) .

ومن هنا فقد ركزت الايكولوجيا الثقافية على دراسة النسق المتفاعل الذي يتكون من جزأين الأول ؛ ويتمثل في الموارد الطبيعية والحياة النباتية أو الحيوانية أو المناخ والأمراض المحلية وملامح أخرى كثيرة من ملامح البيئة ، والاخر يتمثل في النسق المتفاعل في الثقافة – خاصة استغلال التكنولوجيا والتكيف الثقافي مع ارتباطه بملامح البيئة الاجتماعية (٥٠) .

وبناء على ذلك فقد اقترح ستيوارد ثلاث خطوات أساسية للتحليل الإيكولوجي الثقافي تعبر عن منهجه الذي أشتهر به هي :

١- تحليل العلاقة المتبادلة بين تكنولوجيا الثقافة وبيئتها ، أي الى أي مدى تستغل الثقافة وبشكل مؤثر الموارد المتاحة لتوفير الطعام والمسكن لأبنائها .

٢- تحليل نمط السلوك المرتبط بتكنولوجيا الثقافة ، أي كيف يقوم أبناء الثقافة بأداء العمل الذي يجب عليهم القيام به من أجل بقائهم .

٣- تقرير العلاقة بين هذا النمط السلوكي وبقية جوانب النسق الثقافي ، أي كيف يؤثر العمل الذي يقوم به من أجل البقاء على مواقفهم واتجاهاتهم وكيف يرتبط سلوكهم من أجل البقاء بأنشطتهم الاجتماعية وعلاقاتهم الشخصية (٥١) .

أخيراً فربما كان ستيوارد من الأنثروبولوجيين القلائل الذين انتهجوا نهجاً تجريبياً حيث افترض في صياغته لمفهوم الايكولوجيا الثقافية أن التكيفات البيئية تعتمد على تكنولوجيا المجتمع وحاجاته وبنائه وعلى طبيعة البيئة وهذه كلها سمات تجريبية في منهج ستيوارد ، فضلاً عن أن الايكولوجيا الثقافية عند ستيوارد تعترف بوجود اختلافات جوهرية بين الثقافات ناجمة عن العمليات التكيفية الخاصة التي يتفاعل المجتمع بمقتضاها مع بيئته .

المنهج عند الوظيفيين :

لم تلق نظرية التطور أو التوازي أو الانتشار ضوءاً كافياً على الجانب التكاملي للثقافة مما حدا ببعض العلماء بالتقدم بخطة جديدة للتغلغل في الوصف الأثنوجرافي وتحليل التكامل بين هذه

النظم المختلفة والعلاقات المتبادلة بين هذه النظم وبين بعضها البعض وكان ذلك إيذاناً بميلاد المدرسة الوظيفية في العلوم الاجتماعية خاصة في مجال علم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا .

وفي مستهل القرن العشرين أصبحت الوظيفية تحظى بقبول عام كمنهج أنثروبولوجي جديد وهام . وقد كان إميل دوركايم (١٨٥٨ – ١٩١٧) أول من استخدم الوظيفة منهجاً لتفسير ظواهر اجتماعية معينة ، ولكن إذا نظرنا الى الوظيفة كنظرية متماسكة واستخدام الوظيفة كمنهج لشرح بعض الظواهر الطبيعية فإن دوركايم لم يكن وظيفياً بالمعنى النظري للكلمة ولكنه استخدم المنهج الوظيفي لشرح وظائف الظواهر الاجتماعية في المجتمعات البدائية وكان لكتاب دوركايم " الأشكال الأولية للحياة الدينية " الذي ركز فيه على الوظيفة البدائية للدين تأثير كبير على كل من برونيسلاف مالينوفسكي (١٨٨٤ – ١٩٤٢) ، ورادكليف بروان (١٨٨١ –١٩٥٥) (٥٢) .

وكما يقول أحمد أبو زيد في كتابه " البناء الاجتماعي " فإنه ليس من شك في أن استخدام مفهوم الوظيفة في دراسة المجتمع يقوم في أساسه على المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية ، وهي مماثلة قديمة شاعت شيوعاً كبيراً في القرن التاسع عشر بوجه خاص . وأصحاب هذا الاتجاه يستخدمون الكلمة للأشارة الى العلاقات المتبادلة بين البناء الاجتماعي وعملية الحياة الاجتماعية ...ومع أن المماثلة بين المجتمع والكائن العضوي أصبحت تعتبر في نظر كثير من علماء الأنثروبولوجيا المحدثين وبخاصة المشتغلين منهم في تاريخ العلم ، من مخلفات الماضي وذلك لم يعد ينظر إليها بكثير من الاحترام أو التقدير .... ومع أن معظم الكتاب المحدثين يحاولون جهدهم اجتناب هذه المماثلة ويتحرجون أشد التحرج من الالتجاء إليها أو إبرازها بصراحة ، فالواقع أن كثيراً جداً من الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية لا يزال يعتمد عليها لدرجة انه يمكن القول انه حيثما ظهرت كلمة " البناء" أو " الوظيفة" كان ذلك دليلاً كافياً على وجود فكرة المماثلة في ذهن الكتاب (٥٣) .

فيرى الوظيفيون أن فكرة التكامل الوظيفي تفترض أن أي جزء في أي نظام في المجتمع لا يمكن فهمه أو تقديره إلا من خلال النظر الى علاقته الوظيفية ببقية مكونات النظم في المجتمع ذاته ، تماماً كما لا نستطيع أن نفهم دور القلب إلا إذا أخذنا في الاعتبار علاقته البنائية الوظيفية بالأعضاء الأخرى للكائن الحي والتي تستهدف جميعها بقاء هذا الكائن أي أن الوظيفيين يرون أن كل أنماط السلوك الإنساني تستهدف إشباع حاجات أساسية لا يمكن إدراك معناها الإ في ارتباطها بالأنماط الأخرى داخل البناء (٥٤) .

أما برونيسلاف مالينوفسكي (١٨٨٤ – ١٩٤٢) الذي كان من قادة الحركة الوظيفية في إنجلترا فقد ذهب الى أن محاولة اكتشاف أصول العناصر الثقافية كان مقدراً لها أن تكون عملاً تأملياً غير علمي لغياب السجلات المكتوبة . فكان يرى أننا بمجرد أن نفهم وظيفة نظام ما نكون قد فهمنا كل ما يمكن أن نفهمه عن أصول هذا النظام (٥٥) . ولعل هذا هو ما حدا بمالينوفسكي الى الاهتمام بالدراسة الحقلية فجاءت دراسته الحقلية لجزر التروبريارند إسهاماً من أهم الإسهامات التي لقيت تقديراً لها بين العلماء فلقد تفوق في وصفه لحياة سكان جزر التروبرياند على جميع الدراسات الأثنوجرافية السابقة ووضع بهذه الدراسة معياراً للبحث ما زال مستخدماً حتى الآن . فهو لم يجمع الروايات الكاملة التفصيلية عن أنماط النشاط المعيارية فحسب بل سجل أيضاً السلوك الفعلي للأفراد في ظروف متنوعة . فكان أهم إسهام لما لينوفسكي في الدراسات الأنثروبولوجية أنه وضع نموذجاً للعمل الحقلي (٥٦) . والذي لاشك فيه أن بعض المعقدات المرتبطة بالوظيفة تعتبر معتقدات أساسية في الأنثروبولوجيا النظرية ، خاصة المقولة المنهجية التي تذهب الى أن علينا أن نستكشف الملامح المنتظمة في الثقافات ، أي أن نبحث عن الطرق التي ترتبط بها نظم المجتمع وأبنيته لتكوين النسق . فالبديل الوحيد لذلك هو أن ننظر الى الثقافة على أنها مجموعة غير منتظمة من السمات التي لا يربطها رابط والتي ظهرت هنا وهناك بفعل المصادفة التاريخية (٥٧) .

وإجمالاً فلقد كانت أهم إسهامات مالينوفسكي المنهجية في علم الأنثروبولوجيا هي :-

أ- تأكيده أهمية استخدام الباحث للغة الوطنية عند جمع مادته (قام مالينوفسكي بثلاث رحلات الى غينيا الجديدة لدراسة سكان جزر تروبرياند وكانت هذه الرحلات نقطة تحول في تاريخ الدراسة الميدانية في علم الأنثروبولوجيا) .

ب- استخدامه لما أطلق عليه منهج التوثيق الإحصائي للأدلة المادية (وتشمل هذه الطريقة جمع المعلومات عن القوانين والحالات الفعلية أو المادية وأشجار النسب وتعداد السكان والخرائط وإعداد الجداول الرمزية التي تبين ملكية أراضي البساتين وامتيازات وتفاصيل الطقوس والأنشطة التقنية وتوزيع المحاصيل ونمط تبادل الهدية في علاقته بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والشعائرية . وأعتبر مالينوفسكي أن وضع هذه الجداول جزء من الكتابة الأنثروبولوجية .

ج- تأكيده أن من واجب الأنثروبولوجي أن يقدم رواية صادقة ودقيقة عن مزاياه وعيوبه والأخطاء التي ارتكبها في دراسته الحقلية .

د- الدعوة الى التكامل الثقافي حيث ذهب الى أن السمة الثقافية لا يجب أن تدرس في عزلة عن غيرها .

ه- في تحليل مالينوفسكي لمفهوم الوظيفة رأى أن المنهج الوظيفي للدراسة يتطلب دراسة العلاقة بين النظم واستخلاص الحقائق غير المرئية والعلاقات بينها .

وأخيراً فإن مالينوفسكي أكد في كتابه المنهجي " النظرية العلمية للثقافة " على أن هدف العمل الحقلي ليس اكتشاف الوظيفة بل أن الوظيفة هي أداة معاونة ومنهج لفهم ما يحدث فعلاً ، كما أن مالينوفسكي لم يكن مهتماً بالمنفعة بل بما يحدث على أرض الواقع وقت إجراء الدراسة (٥٨) .

المنهج عند البنائيين :

وعلى الرغم من أنه قد قيل عن الوظيفة والبناء أنهما " طريقتان للنظر الى نفس المعلومات " فإن البنائيين – الذين كان على رأسهم أ.راد كليف براون (١٨٨١ – ١٩٥٥) قد تفوقوا أحياناً على الوظيفيين في مناهج البحث والتفسيرات ، وشرح الظواهر الاجتماعية الأمر الذي نشأ عنه في النهاية مدرسة كبيرة من مدارس الفكر الأنثروبولوجي وهي المدرسة البنائية الوظيفية (٥٩) .

ولقد كان هناك اتفاق بين مالينوفسكي وراد كليف بروان على أنه لما كانت الأدلة التوثيقية للأحداث الماضية غير متوفرة لمعظم المجتمعات التي كانت تثير اهتمام علماء الأنثروبولوجيا فإنه من العبث محاولة اكتشاف ما حدث في هذه المجتمعات في الماضي ، كما ذهب كلاهما الى أن مهمة علم الأنثروبولوجيا هي وصف وتفسير أعمال أو سلوك المجتمعات المعاصرة ، وهي غالباً مجتمعات غير أوروبية (٦٠) . إلا أن المهمة الأساسية للأنثروبولوجيا الثقافية – عند راد كليف براون – كانت أضيق مجالاً مما اقترح مالينوفسكي. فعلى حين ركز مالينوفسكي على أهمية إسهام العناصر الثقافية في الراحة البيولوجية والسيكولوجية للأفراد ، أهتم راد كليف براون والوظيفيون – البنائيون بإسهام الراحة البيولوجية والسيكولوجية للأفراد في الحفاظ على النسق الاجتماعي – فعند الوظيفيين البنائيين كانت وظيفة الحفاظ على النسق تسبق كل الوظائف الأخرى (٦١) .

وعلى حين أراد راد كليف براون للأنثروبولوجيا الاجتماعية أن تدرس المجتمع البشري باستخدام مناهج تشبه في جوهرها المناهج المستخدمة في العلوم البيولوجية والفيزيقية فإنه لم يعترض على تسمية الدراسة " علم الاجتماع المقارن " والواقع إن هذه الدراسة تعتبر موضوعاً

للدراسة في حد ذاته . وبعبارة أخرى فإنها دراسة للمجتمع البشري . لكن راد كليف براون لم يوافق على استخدام كلمة " الثقافة " التي يستخدمها الأنثروبولوجيون للدلالة على الدراسة الشاملة للمجتمع البشري وعنده أن السكان في مجتمع ما يعيشون في بيئة طبيعية معينة ونحن نلاحظ أعمالهم السلوكية وتكشف لنا الملاحظة المباشرة عن أن هؤلاء البشر يرتبط كل منهم بالآخر عن طريق شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية وصفها راد كليف براون "البناء الاجتماعي " وهو يشير بهذا المصطلح الى شبكة العلاقات القائمة فعلاً . فرفض راد كليف براون استخدام كلمة الثقافة باعتبارها تجريداً غامضاً لا يدل على أي واقع ملموس .

وباختصار فإنه يمكن القول ان الظواهر الاجتماعية يجب أن تدرس – في رأي راد كليف براون – في إطار علاقاتها المباشرة وغير المباشرة بالبناء الاجتماعي . ولعل أهم انتقاد يمكن أن يوجه الى راد كليف براون هو أنه يمكن اعتباره منظراً ممتازاً ولكنه لم يكن بالباحث الحقلي الممتاز (٦٢) . حيث كانت الدراسة الحقلية الأولي التي أجراها في جزر الأندمان يشوبها بعض العيوب المنهجية فقد صادفته منذ البداية صعوبة اللغة ولم يستطع أن يتقن لغة الأهالي رغم انه أمضى بضعة شهور في جزيرة الاندمان الصغرى يحاول أن يتعلمها.... ويعترف راد كليف براون بأنه لم يحقق نجاحاً يذكر إلا بعد عثوره على إخباري أو (مترجم) من الأهالي يعرف الإنجليزية . ومن ناحية ثانية لم يستطع استخدام الطريقة الجينالوجية التي كان ريفرز قد عمل على تطويرها وبذلك لم يتمكن من جمع معلومات التي كان ريفرز قد عمل على تطويرها وبذلك لم يتمكن من جمع المعلومات دقيقة تفصيلية عن شجرات النسب وأن يدرس بالتالي نظام القرابة والتنظيم العائلي دراسة وافيه كما يجب ...وأخيراً فأنه استمد كثيراً من المعلومات الأنثروبولوجية من كتابات وتقارير الإداريين الذين عاشوا من قبل في هذه الجزر(٦٣) .

مدرسة الثقافة والشخصية :

في الوقت نفسه الذي نشر فيه مالينوفسكي آراءه عن العلاقات بين الشخصية والثقافة في جزر التروبرياند بدأت روث بنديكت (١٨٨٧ – ١٩٤٨) وهي إحدى تلاميذ فرانزبواس تقدم آراءها وفي سنة ١٩٣٤ عرضت في كتابها " أنماط الثقافة " بشكل قوي ومؤثر لموضوع العلاقة بين الثقافة والشخصية ، وكان موقفها الأساسي يتمثل أنه يوجد في كل جماعة نمط سائد من الصيغ الثقافية Cultural Configuration. وانه في اثناء التطور يجري صب كل فرد تقريباً في هذه الصيغة ، ويكون الأعضاء الذين يتمتعون بالطبع المحدد وراثياً الذي يتفق أكثر مع نوع

الشخصية السائد في الجماعة هم أكثر الأعضاء نجاحاً وأكثرهم حظاً من الإعجاب ، وينظر الى النوع السائد على أنه النوع المعتاد للشخصية لكل أعضاء الجماعة .

كما عنيت مارجريت ميد (١٩٠١ – ١٩٧٨) وهي الأخرى من تلاميذ بواس ، في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين بالعلاقة بين الطبيعية البشرية والثقافية . وقد عرضت في كتابها الشهير " البلوغ في سموا " لفكرة التوتر العاطفي الذي يصاحب فترة البلوغ حيث أن البلوغ في سموا لا يستتبع التوترات التي يحدثها في المجتمع الأمريكي المتمدن وخلصت من ذلك الى أن ضغط البلوغ هو فترة تتحدد ثقافياً في تطور شخصية الفرد ولا ترمي بجذورها في الطبيعة البشرية .

ثم قامت في محاولة مشابهة بدراسة سمات الشخصية عند الذكر والأنثى في ثلاثة مجتمعات ميلانيزية لمحاولة اكتشاف ما إذا كانت هناك فوارق ثابتة وعامة في السلوك بين الجنسين بغض النظر عن ما هية الثقافة موضوع البحث فبينت في كتابها " الجنس والمزاج النفسي في ثلاثة مجتمعات بدائية " (١٩٣٥) أن بعض السمات التي كان يعتقد أنها ذكورية غير موجودة في بعض الجماعات وأن بعض سمات الذكورة توجد في الإناث في جماعات أخرى وينطبق الشئ نفسه على الإناث والسمات التي يزعم أنها سمات أنثوية (٦٤) .

ويمكن القول أن الهدف الأول لأصحاب اتجاه الثقافة والشخصية الذي ضم علماء مثل مارجريت ميد ورالف لينتون (١٨٩٣ – ١٩٥٣) وأ . كاردينار (١٨٩١ –) وكورادي بوا(١٩٠٣–) الخ ....هو دراسة العلاقات بين الثقافة والشخصية ويعرف هذا الاتجاه بالأنثروبولوجيا النفسية ، الذي شهد محاولات لدراسة الثقافةكما تتجسد في شخصية أعضائها بدلاً من محاولة تحليل الثقافة كما تتجلى في الأشياء المادية أو النظم الاجتماعية (٦٥) .

وربما كان أهم ما يميز هذا الاتجاه في الأنثروبولوجيا تأكيد روث بندكيت أن الثقافات يجب أن تؤخذ ككل باعتبار أن كل ثقافة هي ثقافة متكاملة لها مبادئها الخاصة وصيغها الخاصة وكان أكثر ما ركزت عليه ضرورة الاعتراف بالفوارق الثقافية بين الثقافات وعدم فرض أخلاقنا وقيمنا على كل الشعوب (٦٦) . حيث قالت في كتابها " أنماط الثقافة " : لقد كان علم الأنثروبولوجيا – بحكم تعريفه – مستحيلاً طالما بقي هذا التمييز في أذهان الناس بيننا وبين البدائيين ، وبيننا وبين الهمجيين وبيننا وبين الوثنيين . وكان لا بد وأن نصل الى درجة من التقدم تجعلنا لا نضع عقيدتنا الخاصة في مواجهة خرافات جارنا ، وكان لابد أن نعترف بأن النظم التي تقوم على نفس

الأسس – كالنظم الخاصة بما فوق الطبيعة – ينبغي أن تدرس معاً على أن يتضمن ذلك نظامنا الخاص بنا (٦٧) .

كما طورت روث بندكيت وطبقت منهج تحليل المضمون Content analysis Method لدراسة الثقافة عن بعد حيث قامت روث بندكيت في الحرب العالمية الثانية بدراسة المجتمع الياباني رغم أنها لم تذهب الى اليابان أبداً ، فقامت بدلاً من ذلك بدراسة الوثائق التاريخية والأدب الياباني والأشكال الفنية الأخرى كما استعانت بالمهاجرين اليابانيين في أمريكا كإخباريين (٦٨) .

وإذا كان اتجاه روث بنديكت قد ركز على أهمية النمط الثقافي فإن مارجريت ميد وأصحاب الاتجاه المسمى بالثقافة والشخصية قد اقترحوا ثلاث طرائق لدراسة المجتمعات :

أ- دراسة تأثير الثقافة في الشخصية (وقادت هذا الاتجاه مارجريت ميد) .

ب- دراسة تأثير الشخصية في الثقافة (وقادت هذا الاتجاه روث بندكيت) .

ج- الجمع بين الطريقتين السابقتين (وقاد هذا الاتجاه رالف لينتون وكاردينار وكورا دي بوا) .

ومن الناحية المنهجية البحتة فإن إسهام هذه المدرسة في مناهج البحث الأنثروبولوجي يعتبر فقيراً للغاية حيث وجد أن فكرة وجود جوهر يحمل الخصائص المتجانسة للشخصية في كل ثقافة يعتبر أمراً مسلماً به ، إلا أنه عند فحص المتوسطات الإحصائية ومضاهاتها بأداء الأفراد الفعلي كانت الاختلافات كثيرة الى درجة تدعو الى الارتباك كما ذكر والاس وكابلان وغيرهما (٦٩) .

الدراسات الوصفية الجديدة :

لقد حاول مالينوفسكي أن يعطينا وسيلة منتظمة لجمع المعلومات من الملاحظات والخبرات الميدانية التي تسمح للباحثين بأن يروا العالم بعين الشخص الوطني ومنذ ذلك الوقت ظهرت مجموعة متنوعة من التقنيات تزعم كل منها أنها حققت هذا الهدف التقليدي ... مع وضع مجموعة ثانوية من المفاهيم أو النماذج التفسيرية التي تضع قواعد لتنظيم الأشياء التي تمت ملاحظتها بشكل أكثر علمية .

ويمكن استنتاج المبدأ الرئيسي لهذه الأساليب المتشابهة التي يطلق عليها الآن الأساليب العرقية – العلمية Ethnic Scientific فهي تسعى الى وضع مجموعة من التساؤلات التي يمكن استنساخها والتي تكون ذات علاقة ثقافية بالموضوع والتي يأمل الباحث أن تنتج عنها إجابات يمكن استنساخها وتكون ذات علاقة ثقافية بالموضوع بنفس الدرجة . ثم يتم تحليل هذا الكم من المعلومات تحليلاً دقيقاً في أطار فئات دلالية ومنطقية يتم بناؤها في بناء ومضمون

إجراءات " الاستخلاص " والهدف الكلي من كل هذه العملية هو تخليق صورة منتظمة صحيحة يمكن الاعتماد عليها لمجال معلومات " الإخباري "

ولقد وصفت المجالات الخاصة بالبحث الأنثروبولوجي التي تحمل صفات المعرفية والعرقية العلمية والدلالة العرقية بأنها تشكل الإنثوجرافيا الجديدة وقيل أن هذه المجالات هي بمثابة تحد للتعريفات السابقة للعمل الميداني والمعلومات الأنثروبولوجية التي تم جمعها بالكفاءة . ومع ذلك فإن أهداف هذا الأسلوب لا تختلف جذرياً عن أهداف مالينوفسكي وإن كانت تمثل إعادة تشكيل " للموضوعات القديمة " وتقترح أن توضح أولاً : خصائص الإثنوجرافيا الجديدة ونعرف بعض حدودها التي ربما كان بعضها لا يجد الاعتراف الكافي به (التي لم نتعرف عليها تعرفاً كافياً بعد) ، وبادئ ذي بدء يتم طرح مجموعتين من الظواهر :-

١- عالم ظاهري أو مادي (يتكون من أشياء كالأشياء الملونة والنباتات وأنواع خاصة من العلاقات الاجتماعية) يفترض أننا ندركه معرفاً في شكل نسق أو نظام أو خريطة لفئات مرتبطة منطقاً .

٢- ولغة متكلمة ندركها أيضاً نسقاً أو نظاماً رمزياً . ويمكن تعريف الأشياء الواقعة في العالم المادي بمجموعة من السمات التي تسمح لأعضاء الثقافة بتمييزها من أشياء أخرى .

وهذه السمات يمكن أن تستخدم ، وتستخدم فعلاً ، من قبل أي متكلم قادر لتمييز وتصنيف وتسمية الأشياء بحيث يمكن الوصول الى معان متناسقة ويشترك فيها الأفراد ويمكن توصيلها بين المتكلمين الوطنيين . ومهمة الأثنوجرافي ليست وصف المجال الكامل للمعلومات الأثنوجرافية ذات الصلة (دراسة الجماعة) بل تحديد منطقة معينة ذات مغزى مهم اجتماعياً (وتعتبر القرابة أكثر مناطق التركيز شيوعاً) ، واستخلاص الألفاظ Lexemes التي تشير الى الأشياء الموجودة في عالم الظاهرات والسعي الى وضع قواعد تفسر الطريقة التي ينظم بها أعضاء الجماعة عينات (أو أشخاص) العالم . وكثيراً ما تعقد المقارنات بين الدلالات البنائية .

وفي أثناء قيام الباحث بعملية تحديد المجال الدلالي ومجموعة الأطر اللغوية المتناسقة التي تصف هذا المجال (أسئلة بإجابات مناسبة) يصبح فعلاً من المتكلمين بكفاءة : فيمكنه أن ينتج "... أوصافاً ناجحة بشكل ظاهر للرسائل باعتبارها مظاهر للنظام الرمزي " أخيراً فهو يحاول "بناء نظرية من النظم الرمزية – أي نظرية للثقافة " . أي أنه لا يبحث فقط عن Lexemesظاهرة وما بينها من المقابلات التي تسمح له بالتصنيف بل يبحث عن المبادئ التنظيمية نفسها التي تكمن خلف توليد الرسائل وفهمها (٧٠) .

نقد وتحليل :

يتبين لنا مما سبق أن المنهج في الدراسات الأنثروبولوجية قد مر بمراحل متعددة بدأت بتأكيد هربرت سبنسر على أهمية المقارنة كمنهج لدراسة المجتمع البشري سواء المقارنة بين المجتمع البشري والكائن العضوي ، أو بين المجتمعات البشرية المختلفة حيث دعا الى دراسة أكبر عدد ممكن من المجتمعات دراسة مقارنة . ثم جاء أدوارد برنيت تايلور ليفترض تطور الثقافة تطوراً أحادياً عبر مراحل ثلاث : هي الوحشية والبربرية والحضارة مستنداً في ذلك الى الأدلة الأثنوجرافية التي تشمل إعادة بناء المعلومات الأثرية ، وهو اتجاه ينطوي على تجريبية ملموسة ، أكدها تايلور باستخدامه للإحصائيات والمعلومات التي جمعت من مائتين وأثنين وثمانين مجتمعاً .

ولعل أهم الإسهامات المنهجية للمدرسة التطورية هي استخدام الأنثروبولوجي الأميريكي لويس هنري مورجان لمنهج الملاحظة بالمشاركة وتطبيقه للمنهج المقارن عند دراسة النظم القرابية بعد اكتشافه للنسق التصنيفي لمصطلحات القرابة . ومن الغريب أن مورجان بعد استخدامه هذا المنهج التجريبي بنجاح كبير لجأ الى ما عرف فيما بعد باسم منهج تحليل المضمون لدراسة الثقافة عن بعد (وهو منهج استخدامه أصحاب مدرسة الأنماط فيما بعد) حيث وضع استفتاء من سبع صفحات يتكون من مائتي سؤال وأرسله الى البعثات الأجنبية المختلفة .

ومع ظهور النظرية الانتشارية لتفسير نشأة الثقافات البشرية وتطورها تشعبت السبل بالمنهج الأنثروبولوجي فبينما كان الإسهام المنهجي للانتشاريين البريطانيين ضعيفاً لم يتجاوز افتراضات تخيلية استند أصحابها الى التشابهات الظاهرية بين بعض عناصر الثقافة المادية (كالأهرام مثلاً) على حين جنح زملاؤهم الألمان الى التأملية البحته والتصنيف القائم على " منهجية المتاحف " لعناصر الثقافة المادية ، فأن الأنثروبولوجي الأميريكي فرانزبواس الذي يعد بحق " أب الأنثروبولوجيا الأمريكية " قد ركز على أهمية تطوير مناهج البحث الأنثروبولوجي . فمن ملاحظته للتشابه بين السمات الثقافية لقبائل الهنود الحمر المتقاربة (قبائل كواكيوتيل) توصل الى مفهوم المنطقة الثقافية ولعل أهم إنجازات بواس المنهجية أنه دعا الى بقاء الباحث الأنثروبولوجي على الحياد عند تحليل الفوارق الثقافية بين المجتمعات وحذر من أن تحيزات الشخص الثقافية لا بد وأن تتسلل الى العمل ، وفي هذا دعوة واضحة الى ضرورة التزام الباحث للموضوعية في بحثه . ثم أنه استخدم تقنيات الإحصاء المختلفة في تحليله للمعلومات الخاصة بالأنثروبولوجيا الفيزيقية ودعا الى الاهتمام بالدراسة الحقلية كجزء أساسي من أي برنامج

تدريبي للأنثروبولوجيين والتعامل بلغة المجتمع الذي يقوم الباحث بدراسته وهو في هذا يأخذ بمبدأ الملاحظة بالمشاركة .

وفي القرن العشرين ظهر اتجاه تطوري جديد أعتمد على تعديل نظرية التطوريين الكلاسيكيين في ضوء الأبحاث الجديدة التي قام بها علماء من أمثال جوردون تشايلد وجوليان ستيوارد وليزلي هوايت . ومع احتفاظ هذا الاتجاه بجوهر فكرة التطورية في القرن التاسع عشر (والتي تعتمد على افتراض أو تخيل تطور الثقافات البشرية بشكل معين) فقد كان لطرق البحث التي استخدمها التطوريون الجدد أثرها في تعديل النظرة الى صفة هذا التطور فاستخدم جوردون تشايلد السجل الأثري لتصنيف مراحل التطور الثقافي من مرحلة الوحشية الى البربرية ثم الحضارة مستنداً في آرائه الى الاكتشافات التي أسفرت عنها أعمال التنقيب الأثرية كالأدوات اليدوية والخزف....الخ ، أما الأنثروبولوجي الأمريكي جوليان ستيوارد فقد رأى في التطور التعددي للثقافات البشرية في خطوط متعددة وليس في خط واحد منهجاً تجريبياً يعتمد على التجريب أكثر مما يعتمد على الاستنتاج مستنداً الى أنه أسلوب يتناول الاختلافات والتشابهات الثقافية من خلال مقارنة النتائج المتوازنة للتطور بصفة عامة في مناطق جغرافية تفصل بينها مسافات واسعة كما رأى ستيوارد أن الاهتمام بمضمون أو محتوى الثقافة يؤدي الى إهمال التشابهات البنائية المهمة التي قد تصحب الاختلافات التي نبالغ في التأكيد عليها . فالمهمة الأولي للتطور المتعدد الاتجاهات – في رأيه – هي شرح وتبرير هذه التشابهات البنائية . ومن شأن تحليل النتائج المنطقية في مناطق مختلفة من العالم أن يثبت أن الميكانيزمات المتشابهة (الآليات المتشابهة) التي تنتج تشابهات في البناء كانت ولا تزال تعمل عملها . وقد تناول ستيوارد هذه القضية على أساس تجريبي فقارن الحضارات العليا للعالم القديم مع حضارات العالم الجديد وقال أن التشابهات في أبنيتها السياسية والاجتماعية قد نشأت عن التشابهات الجوهرية في مواطنها الطبيعية والتقنيات التي تم تطويرها لاستغلال هذه المواطن

أما ليزلي هوايت الذي كان ثالث التطوريين الجدد فمع إيمانه بالتطور الثقافي التراكمي فإنه جنح الى وضع عدد من المعادلات التي كان أهمها صيغته الشهيرة لشرح التطور الثقافي والقائلة بأن الثقافة تتقدم عندما تزيد كمية الطاقة التي تتم السيطرة عليها بالنسبة لكل رأس وكل سنة أو عندما تزيد الكفاءة المستخدمة في الاستفادة من الطاقة وبسبب هذا الموقف فإن هوايت كثيراً ما كان يتهم بالتقريرية التكنولوجية الميكانيكية .

وبظهور الوظيفيين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بدأت ملامح المنهج الأنثروبولوجي تتضح في أعمال علماء كبار على رأسهم مالينوفسكي الذي كان من أهم إسهاماته المنهجية :

١- التأكيد على أهمية استخدام اللغة الوطنية في البحث الميداني .

٢- استخدام منهج التوثيق (جمع المعلومات وإعداد الجداول) .

٣- التزام الباحث الميداني بالصدق في روايته .

لقد ظهرت بعض الاتجاهات الأنثروبولوجية الحديثة نسبياً التي ركزت على أهمية النسبية الثقافية وضرورة الاعتراف بالفوارق الثقافية بين الثقافات كذلك الاتجاه المسمى مدرسة الأنماط الثقافية الذي تزعمته روث بندكيت والتي كان من إسهاماتها المنهجية المهمة الأخرى استخدامها لمنهج تحليل المضمون لدراسة الثقافات عن بعد . وأن كان المنهج نفسه من أسباب الانتقادات التي وجهت الى مورجان كما سبق القول . كما كان من الاتجاهات الحديثة ذلك الاتجاه الذي أطلق عليه مدرسة الثقافة والشخصية وهو اتجاه يتسم بالفقر الشديد من الناحية المنهجية كما سبق القول .

ثم ظهرت الدراسات الوصفية الجديدة (الأنثوجرافيا الجديدة) التي تسعى الى وضع تساؤلات يتم تحليل الإجابات التي يحصل الباحث عليها في إطار فئات دلالية ومنطقية خاصة وأن كانت أهداف هذا الأسلوب لا تختلف جذرياً عن أهداف مالينوفسكي واتباعه من الوظيفيين .

وفي ضوء العناصر الأساسية للمنهج العلمي التي عرضنا لها في بداية هذه الدراسة التي تضمنت " خطوات العمل " الواجب اتباعها عند بحث مشكلة من المشكلات أو ظاهرة من الظواهر ، فإنه يمكننا أن نختبر مدى نجاح علماء الأنثروبولوجيا على اختلاف منطلقاتهم وتشعب توجهاتهم في إضفاء طابع " العلمية " على ما صاغوا من نظريات وما استخدموا من مناهج تشكل منها عبر مائة وخمسين عاماً أو يزيد ذلك الصرح " العلمي " الكبير الذي نشأ تحت مظلة العلوم الفلسفية والاجتماعية ، ثم استقل بحد ذاته ونما وتطور حتى نشأت في كنفه علوم وعلوم تندرج كلها تحت مسمى الأنثروبولوجيا .

وبداية فإنه لا بد من العودة الى العناصر الأساسية للمنهج العلمي التي يمكن إجمالها في :

١- توضح المشكلة بحيث تكون قابلة للبحث من حيث المبدأ .

٢- تعريف العناصر الجوهرية للمشكلة .

٣- وصف إجراءات الملاحظة ليستفيد منها علماء آخرون .

٤- تطابق التحليل التدريجي للملاحظات مع القوانين المعتادة للمنطق المستخدم في كل العلوم .

ويكشف لنا الاستقراء المتأني لمناهج البحث التي استخدمت في الدراسات الأنثروبولوجية عن أي هذه العناصر قد عرفت طريقها بشكل مباشر أو غير مباشر الى طرائق البحث التي استخدمها علماء الأنثروبولوجيا .

فمن الثابت أن الهدف الأول للدراسات الأنثروبولوجية – النظرية منها والميدانية – كان إلقاء الضوء على نشأة المجتمعات البشرية وتطور ثقافتها المادية واللامادية في المكان والزمان . ومن هنا كان توجه علم الأنثروبولوجيا عند نشأته في القرن التاسع عشر الى محاولة الإجابة على هذا السؤال : كيف تطورت المجتمعات البشرية ؟

ورغم اختلاف الإجابات التي اقترحتها المدارس الأنثروبولوجية المتعاقبة على هذا السؤال فإن الشيء الوحيد الذي يجمع بين كل هذه المدارس كان وجود مشكلة قابلة للبحث من حيث المبدأ (العنصر الأول من عناصر المنهج العلمي) .

ولقد تضمنت المحاولات المتعاقبة لعلماء الأنثروبولوجيا للإجابة عن هذا السؤال التعريف بالعناصر الجوهرية (العنصر الثاني) ، يشهد بذلك التعدد اللافت للنظر لتعريفات " الثقافة " باعتبارها المبحث الأساسي الذي حظي بالقدر الأكبر من جهود الأنثروبولوجيين وكذلك ما يتصل بالثقافة من مفهومات ارتبط كل منها بنظرية انثروبولوجية معينة أو منهج معين أو طريقة بحث معينة ارتبطت بمحاولة الإجابة على السؤال الأساسي للباحث – وهو في حالتنا مسالة نشأة وتطور المجتمعات البشرية وثقافتها – ومن المفهومات : التطور الأحادي ، والتطور المتعدد الخطوط ، الانتشار ، الجوهر الثقافي ، الصيغة الثقافية ، التكيف الثقافي ، التكامل الثقافي ، الوظيفة ، البناء ، الخ . أي أن علماء الأنثروبولوجيا إنما كانوا يقومون بأبحاثهم وفي أذهانهم سؤال محدد يسعون الى الإجابة عنه ، وعناصر محددة يحاولون بناء إجابتهم على هذا السؤال في إطارها .

إما وصف إجراءات الملاحظة ذات الصلة بالعناصرالمحددة بتفصيل بالعناصر المحددة بتفصيل كاف يساعد العلماء الآخرين على تقييم كفاءة ملاحظات البحث (العنصر الثالث) فإنه يمثل تقريباً الجزء الأكبر من الكتابات الأنثروبولوجية على اختلافها ، أو بعبارة أخرى فإن وصف الإجراءات المتبعة في البحث الأنثروبولوجي هو وصف لتاريخ الأنثروبولوجيا نفسه ، سواء شمل هذا الوصف الإجراءات التي اتبعها الباحث الميداني فعلاً أو الإجراءات التي أوصى العالم الأنثروبولوجي باتباعها عند دراسة المجتمعات المختلفة ؛ من ذلك مثلاً :

*تركيز هربرت سبنسر (رغم ما تتهم به المدرسة التطورية من الاعتماد على الافتراضات التخيلية) على دور المقارنة ودراسة أكبر مجموعة ممكنة من الشعوب ، مع التركيز بصفة خاصة على المجتمعات البدائية صغيرة الحجم .

* استخدام مورجان لمنهج الملاحظة بالمشاركة عندما كان يجمع مادة كتابة"عصبة الإيروكوا " .

* استخدام بواس – الذي كان عالم رياضيات مجرباً – لتقنيات الإحصاء في تحليله للمعلومات الخاصة بالأنثروبولوجيا الفيزقية.

*اقترح جوليان ستيوارد لخطواته الثلاث الشهيرة للتحليل الإيكولوجي الثقافي ، وهي تحليل العلاقة المتبادلة بين تكنولوجيا الثقافة وبيئتها ، وتحليل نمط السلوك المرتبط بتكنولوجيا الثقافة ، وتقرير العلاقة بين هذا النمط السلوكي وبقية جوانب النسق الثقافي .

* تأكيد مالينوفسكي عمدة الوظيفيين على أهمية استخدام الباحث للغة الوطنية في جمع مادته ، ومنهج التوثيق الإحصائي ، والصدق في الرواية ، والدعوة الى الإيمان بالتكامل الثقافي في دراسة العلاقة بين النظم لاستخلاص الحقائق غير المرئية منها .

ونصل أخيراً الى العنصر الرابع – والأهم – الواجب توافره في المنهج حتى يكون منهجاً علمياً ، وهو تطابق التحليل التدريجي للملاحظات مع القوانين المعتادة للمنطق المستخدم ، وهو منطق واحد في كل العلوم .

وترجع أهمية هذا العنصر الى أنه يبرز أهم نقاط الضعف في المناهج التي استخدمت في الدراسات الأنثروبولوجية .

فمن بين الحجج التي سيقت للدلالة على افتقار الأنثروبولوجيا الى الطابع العلمي ، من حيث انعدام التطابق بين تحليل الباحث لملاحظته وقوانين المنطق ، أن التطوريين في القرن التاسع عشر لم يستطيعوا إثبات وجود علاقات وثيقة بين أنواع معينة من الأدوات (أي مظاهر الثقافة المادية) وجوانب الثقافة التي تحكم أنظمة الملكية أو القرابة مثلاً ، ونتيجة لذلك كانت الارتباطات التي قالوا بها بين التكنولوجيا والأشكال الثقافية هي من نتاج تأملاتهم أكثر منها اكتشافات تجريبية ، كما أن استخدام المنهج المقارن لإعادة بناء التاريخ كان تحليلاً لملاحظات (أو بالأحرى افتراضات تخيلية) لا يتفق مع قواعد المنطق . ويصدق ذلك أيضاً على المنهج الذي استخدمه الانتشاريون في التوصل الى تعميماتهم الخاصة بانتشار السمات بين الثقافات ، حيث اعتمدوا اعتماداً كاملاً على التشابه الظاهري بين السمات الثقافية ، فوقعوا بذلك في نفس الخطأ الذي وقع فيه التطوريون ألا وهو التوصل الى نتائج معينة بناء على افتراضات غير تجريبية لا

يمكن التأكد من صحتها لبعدها زمنياً عن قدرة العقل البشري على الإحاطة بهـا . كمـا وقـع الإنتشاري الأمريكي ويسلر في الخطأ نفسه – أي انعدام التطابق بين تحليله لملاحظته وقواعـد المنطق – عندما حاول الربط بين النتائج التي قاده إليها التشابه بين المناطق الثقافيـة والغذائيـة التي أفترض وجودها بين الهنود الحمر ، والتصنيفات اللغوية والعرقية ، حيث اكتشف ضـعف هذه الرابطة الى الحد الذي جعله يجد في فكرة الانتشار التفسير المنطقي الوحيد لذلك .

ورغم الموضوعية الظاهرية في تأكيد روث بندكيت وأتباع مدرسة الثقافة والشخصية – أو الأنثروبولوجيا النفسية – على ضرورة النظر الى الثقافة ككـل باعتبارهـا ثقافـة متكاملـة ، والاعتراف بالفوارق الثقافية بين الثقافات ، فإن فكرتها القائلة بوجـود جـوهر ثقـافي يحمـل الخصائص المتجانسة للشخصية في كل ثقافة لم تصمد لفحص المتوسطات الإحصائية ومقارنتها بالأداء الفعلي للأفراد فجاءت كتعبير شاعري أو نفسي أكثر منها كمفهوم يـستند الـى التحليـل والتجريب .

وفي ضوء التحليل السابق للعلاقة بين مناهج البحث الأنثروبولوجي والمناهج المستخدمة في العلوم الطبيعية، يتضح لنا أن البحث الأنثروبولوجي لم يكن – منذ نشأته – بعيداً عـن البحـث العلمي ، بل أنه كان حتى في بداياته التطورية التي قامت على أساس من " افتراضات تخيلية " يقتفي خطى المناهج العلمية ويجد فيها الوسيلة لحل مشكلته الأساسية وهي البحـث فـي نـشأة المجتمعات البشرية وتطورها . وإذا كانت طبيعة المشكلة البحثية في حد ذاتها قـد لعبـت دوراً كبيراً في الحد من وضع " قوانين "لها صفة الإطلاق التي تتمتع بها قـوانين العلـوم الطبيعيـة كالفيزياء أو الكيمياء مثلاً ، فإن لجوء علماء الأنثروبولوجيا الى أساليب المقارنة والإحـصاءات الرياضية والطرق التجريبية ممثلة في الدراسة الحقلية والملاحظة بالمشاركة والتوثيـق ، إنمـا يثبت إن علم الأنثروبولوجيا قد نهل من منهل المناهج العلمية بقدر ما سـمحت بـه الظـروف الخاصة بموضوعات بحث هذا العلم الحديث نسبياً .

ومن المهم أن نشير في هذا الصدد الى أن هذه الدراسة ليست دفاعاً عـن " علميـة "علـم الأنثروبولوجيا أو محاولة لإلباسه " ثوب العلم المقدس " بطريقة تعسفية ، بل هي مجرد محاولـة لرصد الجهود المنهجية لعلماء الأنثروبولوجيا ، وبيان مدى اقتراب المناهج الأنثروبولوجية من " الروح العلمية " وشروط البحث العلمي .

الهوامش و المصادر:

١) David Davies M. A. : A Dictionary of Anthropology , Fredrick Muller Ltd . London , ١٩٧٢ P .P. ١٢٤ - ١٢٥ .

٢) المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية : نخبة من أساتذة قسم علوم الاجتماع – دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية ١٩٨٤ : ص ٢٨٧ .

٣) Pelto . Pertti J . ; Anthropology Research . The structure of Inquiry . Harper & Row , publishers . New York , ١٩٧٠ . P . ١ - ٩ .

٤) Watson . Richard A . & Watson , Patty Jo : Man and Nature , An Anthropological Essay , Harcourt Brace & World Inc , New York ١٩٦٩ , P.P .٧ - ٩ .

٥) Keesing . Roger : Culture Anthropology . A Contemporary Perspective , Holt Rinehat and Winston , and Winston , New York . ٢٠٠٠, P ٤ .

٦) Watson & Watson ,op . cit , P.P ١٠-١١ .

٧) Pelto , op ,cit ,P ٣٤ - ٣٥ .

٨) Philips . Bernard . : Social Research. Strategy , and Tactics . Macmillan Pub Co . New York ,١٩٧٦ , P.P ٤ - ٥ .

٩) Diesing . Paul : Patterns of Discivery in the Social Sciences Routledage & Kegan Paul Ltd , ١٩٧٢ , PP ٢-٨

١٠) Forces . Dennis & Richter . Stepphen : Social Research Methods . Prentice – Hall Inc . Englewood Cliffs , New Jersey , ١٩٩٣ , PP ٢١٧-٢١٨

١١) سمير منعم : المنهج العلمي في البحوث الاجتماعية – المكتب العربي للأوفست – عين الشمس – القاهرة ، ١٩٩٢ : ص ١٢٢.

١٢) Diesing . Paul , op , cit ., PP ٢-٤ .

١٣) عبد الباسط محمد حسن : أصول البحث الاجتماعي – مكتبة وهبه – القاهرة ،١٩٩٠ . ص ٣٠٢

١٤) Diesing . Paul , op, cit , P . ٥ .

١٥) Blak . Jammes A. and Champion . Dean J . : Methods and issues in social Research . John Wiley & Sons Inc .. New York . ١٠٧٦ PP. ٢٦٥ – ٢٦٨ .

١٦) لعل من الطريف أن نشير الى أن الرحالة العرب كانوا أسبق من الأوروبين في الإفصاح عن منهج عقلي في جمع المادة العلمية عن الأقاليم التي سافروا إليها من ذلك مثلاً الجغرافي شمس الدين أبو عبد الله بن أبي بكر المقدسي الذي عاش في القرن العاشر الميلادي وتنقل في أقاليم العالم الإسلامي للتعرف على شعوبها وتقاليدها ووضع كتابه الشهير "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " والذي وضع فيه بعض القواعد المنهجية التي أصبحت الآن جزءاً رئيسياً من المنهج الإثنوجرافي حيث كتب يقول : " وما تم لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان ودخولي أقاليم الإسلام ، ولقائي العلماء ، وخدمتي الملوك ومجالستي القضاة ، ودرسي على الفقهاء ، واختلافي الى الأدباء والقراء ، وكتبة الحديث ، ومخالطة الزهاد والتصوفين ، وحضور مجالس القصاص والمذكرين ، مع لزوم التجارة في كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحد والتفطن في هذه الأسباب يفهم قوى حتى عرفتها ، وتفشي عن المذاهب حتى علمتها ، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها ، وتدبري في الكور حتى فسرتها ،وبحثي عن الأخرجة حتى أحصيتها مع ذوق الهواء و وزن الماء وشدة العناء وبذل المال ولب الحلال وترك المعصية ولزوم النصح للمسلمين بالحسبة ، والصبر على الذل والغربة والمراقبة لله والخشية ... ولا سمعت إلا قول

الثقات من الرجال ..." . أما أبو الريحان البيروني والذي عاش في نفس العصر الذي عاش فيه المقدسي فيكفي أن ننقل ما استهل به كتابه " تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة " : " إنما صدق القائل ليس الخبر كالعيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله " . فوضع البيروبي بذلك أساساً منهجياً هاماً تشكلت على أساسه انطلاقة الدراسات الحقلية ألاثنوجرافية التي أدت بدورها الى نقلة كبرى من الاتجاه النظري التطوري في دراسة الحضارة الإنسانية الذي ساد الفكر الأوروبي إبان القرن التاسع عشر بصفة خاصة ، الى دراسة المجتمعات الإنسانية كل على حدة وذلك عن طريق الاتصال المباشر بالمكان والناس ، و رصد وقائع الحياة اليومية أي عن " طريقة العيان وليس الخبر " على حد تعبير البيروني . أنظر حسين محمد فهيم ، أدب الرحلات ؛ سلسلة عالم المعرفة ؛ الكويت ؛ يونيو ١٩٨٩ . ص ص ٦٤ – ٦٦ .

١٧) Diesing . Paul op. cit PP . ٥ – ٦ .

١٨) Dennis. E. Poplin: communities < A Survey of Theories and Methods of Research , Macmillan Publishers , London , ٢٠٠١, PP . ٢٨٧ – ٢٧٩ .

١٩) Routledge and Kegn Paul LTD (editor) : Notes And Querries On Anthropology , ١٩٦٠, P .٤٥

٢٠) Merriam - Websters collegiate Dictionary , tenth edition , Merriam Webster Incorporated , Springfield , Masssachusettts , USA ٢٠٠٣ .

٢١) Encyclopedia Britannica , William Benton , Publishers Chicago , London , ١٩٦٤ ,vol ٢ P . ٣٦ .

٢٢) Manning , Peter K. & fabrega Jr. , fieldwork and the New Ethnography , in Man , March ١٩٨٩ , Vol II , no ١ .

٢٣) فاروق إسماعيل:الأنثروبولوجيا الثقافية؛دار المعرفة الجامعية؛الاسكندرية؛١٩٨٥ ؛ ص ١٦ – ١٧

٢٤) Makhan Jha ; An Introducation to Anthropological thought , Vicas Publishing House PVT . LTD . ١٩٨٣ PP. ٢٠٣ – ٢٠٤ .

٢٥) Encyclopedia Britannica , op. cit .PP . ٣٦ -٣٧ .

٢٦) Hammond . peter : Introducation To cultural Anthropology , Macmillan Publishing Co. Inc. , ١٩٧١, Pp . ١٦ -١٧ .

٢٧) Makhan Jha ; op. cit .P .٣١ .

٢٨) انظر الحاشية ١٦ .

٢٩) Makhan Jha ; op. cit .PP. ٣٨ – ٣٩ .

٣٠) إيفانز بريتشارد : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ؛ ترجمة أحمد أبو زيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ؛ الاسكندرية ١٩٧٥ : ص ٥٠ .

٣١) Makhan Jha ; op. cit .PP. ٣٩ – ٤٠ ; Encyclopedia Britannica , vol . ١٣ p . ٤٠٧ ; International Encyclopedia of the Social Sciences , The Macmillan Company & The Free Press. New York , ١٩٨٢ vol . & ٣٩٣ ; Harris Marvin . Cultural Anthropology. Harper and Row , publishers , New York ,١٩٨٧, P . ٤١٧ .

٣٢) فاروق إسماعيل : الأنثروبولوجيا الثقافة ؛ مرجع سابق ؛ ص ص ١٢٢ – ١٢٣.

٣٣) Nanda . Serena . Cultural Anthropology . Van Nostrand Co. N.Y.١٩٨٠ P.٢٦.

٣٤) Makhan Jha ; op. cit .PP. ٥٦ – ٥٨ .

٣٥) Malinowski, Bronislaw; A scientific Theory of Culture and other Essays , New York . Oxford University press , ١٩٦٠ , PP. ٤ , ١٧ , ٢١٣ .

٣٦) Malinowski , Bronislaw , op. cit. p .٢٠, ٣٢ .

٣٧) Makhan Jha ; op. cit .PP.٦٤ – ٦٥ .
٣٨) Hammond , Peter, op. cit .p .١٧
٣٩) أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعي (ج ١ المفهومات) الهيئة المصرية العامة للكتاب ؛ الاسكندرية ١٩٨٢ : ص ٢٠١ وص ٢٠٢ .
٤٠) Makhan Jha ; op. cit .P ١٧٣ – ١٧٤ .
٤١) أحمد أبو زيد ، المفهومات ؛ المرجع السابق ؛ ص ص ٢١٦ – ٢١٧ .
٤٢) Makhan Jha ; op. cit .PP٧٠ – ٧١ .
٤٣) أحمد أبو زيد ؛ المفهومات ؛ المرجع السابق ؛ ص ص ٢٠٣–٢٠٤ .
٤٤) Malinowski , Bronislaw , op. cit. PP ٣٣ – ٣٤ .
٤٥) Kaplan , David & Manners, A. , Culture Theory , Prentice – Hall , Inc. Englewood Cliffis , New Jersey , ١٩٧٢ . P . ٤٣ .
٤٦) Makhan Jha ; op. cit .P .٤٩ – ٥١ .
٤٧) Harris , Marvin : The Rise of Anthropology Theory , Thomas & Growell Company , N . Y . ١٩٦٥ , P . ٦٤٧ .
٤٨) Harris , Marvin Cultural Anthropology , P . ٤٢١ .
٤٩) Hammond , Peter , op. cit. PP. ٢٢ .
٥٠)مصطفى السخاوي:الايكولوجيا الثقافية ؛ دار المعرفة الجامعية ؛ الاسكندررية ، ١٩٩٧ ؛ ص ٤٢ .
٥١) Haviland, W. A . : Cultural Anthropology , Holt, Rinehart and Winston Inc. N . Y . , ١٩٧٤. P . ١٧٣ .
٥٢) Makhan Jha ; op. cit .P . ٧٧ .
٥٣) أحمد أبو زيد ؛ المفهومات ؛ ص ص ٦١ – ٦٢ .
٥٤) فاروق إسماعيل ؛ الأنثروبولوجيا الثقافية ؛ مرجع سابق ؛ ص ١٣٤ .
٥٥) Harris , Marvin Cultural Anthropology, op. cit. P . ٤١٩ .
٥٦) Hammond , Peter , op. cit. PP . ٢٠- ٢١ .
٥٧) Kaplan & Manners, op. cit. P . ٥٥ .
٥٨) Makhan Jha ; op. cit .PP. ٨٠ – ٨٥ .
٥٩) Makhan Jha ; op. cit .P ٩٥ .
٦٠) Hammond ., Peter , op . cit . P. ١٩ .
٦١) Harris , Marvin Cultural Anthropology, op. cit. PP . ٤١٩- ٤٢٠ .
٦٢) Makhan Jha ; op. cit .PP . ١٠١ , ١٠٤ , ١٠٩ .
٦٣) أحمد أبو زيد : راد كليف بروان (الفريد ريجينالد) ؛ المجلة الاجتماعية القومية ؛ المجلـد الثلاثـون ؛ العددان الثاني والثالث ؛ مايو و سبتمبر ١٩٩٣ ؛ ص ص ١٦٧ – ١٦٨ .
٦٤) Hammond ., Peter , op . cit . PP . ٢٤ – ٢٥
٦٥) Makhan Jha ; op. cit .P. ١١٥ .
٦٦) Makhan Jha ; op. cit .P. ١١٥ .
٦٧) Benedict, Ruth : Patterns of Culture , Mentor Books , N . Y . ١٩٥٨ ,P . ٣ .